أحمد أوبلحاج

سلطتان : البادية/المدينة

(مغرب : 1955ـ1960)

البادية المغربية في العصر الحديث

في شروط التبعية التي تتميز باستيلاء الاستعمار على المرافق الحيوية في الاقتصاد كالصناعة والمال والانتاج المعدني، في هذه الشروط يتخلى الاستعمار عن البادية لحلفائه المحليين غالبا لتشكل مجال استغلالهم، غير أن هذه الطبقات الطفيلية تتميز برغبة جامحة في الاثراء بشكل لا يتناسب مع امكانيات محراث عمره عشرة آلاف سنة فتجد نفسها مضطرة من أجل إشباع هذه الرغبة لأن تغرس اظافرها في جسم البادية. وتقود عملية التبادل اللا متكافىء في التجارة الدولية بين الدول الاستعمارية والمستعمرات القديمة لتنعكس بدورها على الوضعية بشكل عميق.

إن البادية في العالم الثالث، الذي تشكل فيه المصدر الرئيسي، للانتاج وتضم القسم الاعظم من السكان، تتحول في ظل التبعية الاستعمارية الى متنفس للرأسمالية الدولية تلتمس فيه حلولا لأزماتها المتفاقمة، والى مجال للطبقات الطفيلية للاثراء الفاحش، وهذا ما يُفسر صور القهر والفاقة والجهل... التي تكاد تكون ظاهرة ملازمة لهذه البوادي، كنتيجة منطقية لاوضاع التبعية.

ولا تشذ بادية المغرب عن هذه القاعدة العامة. اذ لم تقف الاوضاع المادية في البادية عند الحال الذي كانت عليه قبل 1956، بل مالت، على النقيض، نحو الانحدار والتدهور أكثر، بحيث لا يشكل الانخفاض المستمر للقوة الشرائية للفلاحين، وحرمانهم من الخدمات العامة كالتعليم والتطبيب والكهرباء... الخ غير مؤشرات دالة. إن مصدر الاوضاع السيئة في البادية ليس هيمنة الاستعمار الجديد على مقدرات الامة فقط، بل راجع ايضا وبالاساس الى مشاركة قوى اجتماعية طفيلية للاستعمار في عملية النهب الممنهج. إن الاستعمار الذي كان يشاطره الاقطاع وحده في استغلال البادية قبل (56)، اضاف بعدها حليفا جديداً كان قبل مبعداً بشكل عام هو البورجوازية. ومنذ ذلك الحين شكل هذا الثلاثي ترسانة لاستغلال واضطهاد البادية.

ان تحالف قوى الاستغلال ليس بالامر الجديد في المرحلة الجديدة، فقد تحالف من قبل وعلى امتداد المرحلة الاستعمارية كل من الاستعمار والاقطاع من أجل تحويل البادية الى بُؤرة للاستغلال. لقد استمد هذا التحالف مبرر وجوده من توافق مصالح الاستعمار والمخزن تاريخيا، فقد أبقى الاستعمار لحليفه على بعض الاراضي التي لم تكن له رغبة فيها، بالإضافة الى أن الاستعمار كان في حاجة الى حليف يناصره على ضرب الثورة في البادية، فجسد الاقطاع

في ذاته بعدائه لملامة مواصفات هذا الحليف وقد انعكس هذا التحالف المصلحي في البنية الفوقية للطرفين التي اتخذت صورة تعايش بين جهازيهما الاداري في البادية. اما كيف استطاع الطرفان حل التناقض بينهما باستمرار والحيلولة دون أن يؤدي الى التفكك حتى سنة (56) فهذا موضوع يحتاج الى دراسة مستقلة، ومع ذلك يمكن الاشارة بصفة عامة الى الدور الخاص الذي لعبته الحركات الشعبية التي كانت تهدد مصالح الطرفين معا، في الحفاظ للتحالف على تماسكه النسبي على امتداد المرحلة الاستعمارية.

ولم يكلف التحالف نفسه مشقة تبرير هذا الازدواج الغريب، بحيث كان واضحا ان البادية تابعة لادارتين، وعليها أن تخضع بالتالي لاستغلال مضاعف، على العكس من المدينة التي كان تناسب هذا الازدواج فيها يميل بصورة قوية لصالح الادارة الاستعمارية. هل كانت المرحلة الاستعمارية شيئا آخر غير تراكم للاستغلال؟ وهل تعني المرحلة الجديدة غير زيادة في هذا التراكم ؟ لقد عدلت المرحلة الجديدة من صيغة واطراف تحالف الامس، فبدل التحالف القديم الذي اتخذت منه البورجوازية، بسبب اقصائها من اقتسام الغنيمة، موقف المُعارضَةِ، تشكَّلَ تحالفٌ جديد يُفردُ لها مكانا، ويعترف لها بنصيب في العملية الاستغلالية، وهذا هو السبب في مؤامرة الصمت التي ضربت على ما جرى في البادية (سنوات 56 — 59) وهو ما يفسر لنا حرص الاطراف على تجميد تناقضاتهم فيها. وتجدر الاشارة الى أن التحالف لم يكن بامكانه أن يطلق يده في البادية بمثل تلك الحرية، لولا نجاحه في تكميم أفواه الطبقة العاملة في المدينة، وضمان حيادها بفضل ارصاءات مادية تساهم في تثبيت الوضع الاستعماري الجديد، فضلا عن أن المخزن لم يخسر مقابلها شيئا، فلكي يتم احكام الطوق على البادية لابد من مهادنة الطبقة العاملة وإلا فقد كان بمقدور العمال أن يفسدوا أي خطة ترمي الى عزلهم عن حلفائهم الموضوعيين، اي الفلاحين، لقد كشفت قيادة الاتحاد المغربي للشغل (أ.م.ش)، بقبولها مبدأ المساومة مع التحالف، عن مواقف مغرقة في الانتهازية وعن حنكة لا تضاهى في تضليل الطبقة العاملة مؤقتا، بتحويل انظار العمال عن قضاياهم الوطنية والمصيرية.

هكذا جاءت المرحلة الجديدة مخيبة لامال الجماهير، لا لترفع كابوس الاستعمال عن كاهلها وانما على العكس من ذلك، لتوسعه وتمنهجه وتزيد من وطأته.

بعد أن احتلت الجيوش الاستعمارية، منذ أوائل القرن بعض المدن الشاطئية والمتاخمة واتخذتها مراكز لتسيير عملياتها العسكرية، بدأت تتحرك داخليا لتحقيق مزيد من التوسع فاصطدمت بمقاومة البوادي، ورغم ضعف وسائل المقاومة لدى الفلاحين فقد هبوا للتصدى للهجوم العسكري الاستعماري بروح معنوية عالية، واذا كان الاستعمار لم يجد المقاومة الحازمة من قبل بعض المدن التي أخضعت بسرعة فانه وجد في البادية الصخرة التي لا تلين: تضامن وتكاثف شعبي لمقاومة الغزو وروح نضالية عالية. لذلك عمد الاستعمار الى استخدام كل

الاساليب الوحشية ضدها ليحطم صمودها، لكن بقدر ما تصاعدت شراسة الهجمة بقدر ما ازدادت مقاومة الفلاحين صلابة، ولم تكن الحملة لتخضع منطقة الا و تجد نفسها امام مقاومة أشد وأعنف في المنطقة التالية، وهكذا خاضت البادية حرب استنزاف ضدا على العدو فرضت عليه دفع ثمن باهض مقابل كل تقدم صغير يُحرزه، ونبهت الشعب الفرنسي الى ما تلحقه المغامرة العسكرية الفرنسية في المغرب من أضرار بالفائض الاقتصادي المستخلص من عرق الكادحين الفرنسيين، ولم تكن هزيمة حملة الاطلس في خنيفرة غير واحدة من الانتصارات التي أثبتت قدرة جماهير الفلاحين على الحاق الهزيمة بالعدو ولو بوسائل دفاعية بسيطة ان لم تكن بدائية. اما الحملة الاسبانية على الشمال فقد وقفت عاجزة لاتطيق حراكا امام فلاحي منطقة الريف ـــ اجبالة، ولم تحصد من محاولاتها اليائسة لاخضاع المنطقة غير الهزائم التي كان لها صدى دولي، فضلا عن تأثيرها المباشر في تفجير الوضع الداخلي باسبانيا، ولولا أن هرع الاستعمار الفرنسي لنجدة حليفه من المأزق الحرج لرجح ميزان القوى نهائيا في المغرب كله لصالح الثورة، لقد فُرض على فلاحي الشمال أن يخوضوا حربا غير متكافئة تحالفت فيها جيوش امبرياليتين و استعملت فيها كل ادوات الدمار التي اثبتت للاستعمار أن الطريق الى البادية ليست سهلة. ولم تسكن المدافع في الريف لبضع سنوات الا لتتجه الى الجنوب حيث شنت جبال الاطلس الصغير والصحراء حرب مقاومة شعبية استطاعت أن تجمد آلة الحرب الاستعمارية لفترة غير وجيزة، وبسقوط جبل صغرو آخر قلعة للمقاومة في سنة 1934، تمكن الاستعمار في الاخير من أن يخضع البلاد ولكن بعد أن كلفته الحرب أزيد من ربع قرن لم ينعم فيها بطعم الراحة.

وبعد (1934) دخلت البادية في مرحلة من الهدوء النسبي جاء معها دور المدن التي تميزت ببروز ونمو «الحركة الوطنية» التي قادتها البورجوازية المغربية، وفي الوقت الذي استنفذت فيه مرحلة الاحتجاج المدينية كل امكانياتها، وطرح اختيار المقاومة المسلحة من جديد، بدأت تتشكل خلايا للمقاومة من العناصر القاعدية لحزب الاستقلال وباستقلال عنه، ولم تسر المقاومة في هذا الدرب طويلا حتى أحست بالاختناق، وأصبح واضحا انها لن تستطيع الاستمرار بدون مشاركة البادية. لقد شكلت البادية الذراع اليمنى بالنسبة للمدينة، فكما أنه لا يمكن تصور محارب بذراع واحدة كذلك لم يكن من الممكن للمدينة أن تستمر بدون ذراعها الثانية (أي البادية)، فقررت المقاومة فتح جبهة البادية وذلك بنقل بعض خلاياها إليها لتأسيس جيش التحرير، ومنذ (1953)، وبعد تأسيس جيش التحرير، شكلت البادية حجر الزاوية في المقاومة. وهكذا وجد نضال المدينة نفسه، لكي يخرج من الطوق مضطرا للانفتاح على البادية وربط مصيره بها، وطيلة هذه الفترة أبدت جماهير البادية استعدادها للسير في طريق التحرير حتى النهاية، وتحمل كل التضحيات التي يفرضها هذا الاختيار، وقد قدمت نماذج رائعة من التضحية ، ليست احداث وادي زم (1955) التي سقط فيها (5000) خمسة آلاف شهيد غير واحد منها.

أخذت الازمة العامة التي بات النظام الاستعماري يتخبط فيها منذ نهاية الحرب الكبرى الثانية، تتفاقم بصورة لم يسبق لها مثيل، نتيجة النهوض الجماهيري العارم الذي بدأ يجتاح المستعمرات ويهدد الوجود الاستعماري في الصميم، ونتيجة امتداد التناقض داخل الامبرياليات بين اتجاهين في الاستعمار القديم والجديد.

أما في المغرب فقد اخذت الازمة تنعكس على النظام الاستعماري في صورة انحلال أصاب سلطتى الاستعمار والاقطاع، وبدأت اعراض هذا الانحلال تتفاقم بالخصوص مع السنوات الاولى من الخمسينيات، ومقابل هذا الكسوف في السلطة الاستعمارية وبموازاة جدلية معه انبثقت في الجهة الاخرى براعم سلطة جديدة أخذت تشق طريقها كبديل للسلطة الاقطاعية من خلال زحزحتها اياها، وارغامها على التراجع. لقد بدأت السلطة الاستعمارية تنحسر أمام المد الشعبي فأخذت النواة الجديدة تبني سلطتها مكان السلطة القديمة مستفيدة من: الطاقات الثورية للجماهير الكادحة التي عقدت العزم على التخلص من النير الاستعماري، ومن تناقضات الامبرياليات، وعلى النقيض من وضعية الاستعمار المتأزمة، أصبح عامل الزمن يلعب دوراً ايجابيا لا في تصليب الحركة وتنمية خبرتها وإكسابها مزيداً من الفهم الصحيح للواقع الذي تتحرك على أرضه فحسب ، بل وفي تشكيل ملامح المستقبل كذلك. لكن الاستعمار لم يمهل الحركة، ولم يدعها تستفيد من تحويل عنصر الزمن الى سلاح تستخدمه ضده، فبادر الى سرقته من يدها في الوقت الذي كانت في أمس الحاجة اليه، وفاجأها بمناورة (1956) التي كان لها وقع الصاعقة، فاربكت مسيرتها ووضعتها أمام تحديات لم تكن قد تهيأت بعد لمواجهتها وعجزت عن استيعابها والرد عليها، فاثر ذلك بشكل سلبي على نموها، وهكذا اجهضت المقاومة المسلحة واجضهت معها الحركة الشعبية التي كانت تشهد نمواً متعاظما، ومنحت مناورة (1956) فرصة للاستعمار وحليفه لالتقاط أنفاسهما والانتعاش من جديد وهيأت للاستعمار شروط اعادة ترتيب اوضاعه للدخول في شوط جديد، بعد أن غير اساليب سيطرته وطرق استغلاله بشكل كبير، وفتح بذلك عهداً جديداً من الهيمنة والتحكم ملقيا على كاهل الامة تحديات ومهمات جديدة.

ويجب الا ننسى ان المناورة لم تكن لتكتسي كل مظاهر الضخامة تلك، لولا تواطؤ اطراف متعددة من استعمار وبورجوازية واقطاع على نسج خيوطها. ان البورجوازية التي قادت بالامس حركة النضال الوطني في المدن خاصة ضدا على الاستعمار طيلة عقود من الزمن قد ارتدت عن مواقعها الوطنية واختارت من أجل تحقيق مصالحها طريق المساومة مع الاستعمار، وشكلت منذ ذلك الوقت طرفاً في التحالف الثلاثي الرجعي للمشاركة في اقتسام الغنيمة. ولا يمكن لهذه الردة الوطنية أن تجد تفسيرها خارج الواقع الاقتصادي الاجتماعي الذي استمدت منه موقف المعارضة للاستعمار، وتستمد منه اليوم موقف المهادنة والمساومة، لقد كانت مصلحتها لا تجد تحقيقها كاملا في المشروع الاستعماري القديم ولذلك ظلت تمارس عليه

صنوف الضغط ليفسح لها مزيداً من المجال، أما اليوم فان المشروع الاستعماري الجديد أصبح قادراً نسبيا على استيعاب هذه المصلحة وإزالة بعض الغبن الذي لحقها، بالاخص وأنها بمسايرتها للمد الشعبي ستخسر كل شيء، وشبيه بهذا موقف البورجوازية الصغيرة في المانيا (1849) حيث يصفها انجلز بقوله «ألم يكن من المنتظر منهم أن يخاطروا بـ «الحياة والملْكية» كما كانوا يقولون لاجل قضية الانتفاضة؟ ألم يكونوا مجبرين على تسلم مواقع مسؤولة في الانتفاضة والتي وفقا لها خاطروا في حال الهزيمة بخسارة رأسمالهم؟ وفي حال الانتصار، ألم يكونوا واثقين من أنهم سيطردون من مراكزهم في الحال وأن يشاهدوا كامل سياستهم تتحطم على يد البروليتاريين المنتصرين الذين كانوا يشكلون القسم الاساسي من جيشهم المقاتل؟ وهكذا لوقوعها بين نارين، لم تستطيع البورجوازية الصغيرة أن تستخدم سلطتها الا لترك الامور تسير نحو الاسوأ، وهذا ما أفقدها حظها الضئيل في النجاح، ودمر الانتفاضة كليا، لقد كان تكتيكها، أو بالاحرى افتقارها الى التكتيك في كل مكان مماثلا لنفسه ولذا فان انتفاضة مايو 1849 في كل انحاء البلاد قد فصلت على نفس النموذج» (الثورة والثورة المضادة ص 150) لذلك لم تتردد البورجوازية امام التبدل الطارىء في أن تغير مواقفها لتنسجم مع المصلحة الجديدة حيث لم يعد ما يبرر استمرار موقف الامس.

إن تراجع البورجوازية هذا عموما لم يكن ليكتسي ذلك الحجم الضخم، ويؤثر تأثيراً سلبيا خطيرا على جيش التحرير لو توفر لهذه الحركة الاطار والتوجيه الصحيحان. لقد شكل جيش التحرير طليعة هذه الحركة، وجسد منذ البدء في اختياره للكفاح المسلح، الاسلوب الثوري الصحيح الكفيل بالسير بالامة على درب تحررها، واعطت تجربته، رغم قصر عمرها، فرصة للامة، للاطلال على شكل ومضمون تحررها بعيداً عن الادعاءات البورجوازية في امكانية ارغام الاستعمار على التراجع باستعمال اساليب الضغط والاحتجاج فقط، كاشفة بالملموس زيف هذه الادعاءات. لكن مناورة (56) جاءت لتجهض هذه الحركة قبل أن يشتد عودها. لقد انتبه الاستعمار الى التهديد الذي تشكله على مصالحه فأسرع بطبخ المعاهدة، وتشييد صرح التحالف البورجوازي الاقطاعي الرجعي تحت رعايته لينهض بدور الحارس لمصالحه، وليشكل ايضا وبالاساس سداً في وجه جيش التحرير والمقاومة، يبعد عنه خطر الاجتثات الذي أصبح يتهدده مع بروز تنامي هذه الحركة في زمن وجيز جداً. لقد جسد الحفاظ على السلطة، واعادة بنائها حتى تنسجم مع شروط الوضع الجديد، التناقض الرئيس الذي كان يعيشه التحالف طيلة الثلاث سنوات الاولى من الاستقلال.

إن السمة البارزة التي طبعت الاوضاع في البادية منذ 1956، هي ازدواج السلطة: فقد استطاعت الامة قبل (56) تنمية وتوسيع سلطتها حتى جاءت دولة الاستعمار الجديد لتعلن الحرب على هذه السلطة مستهدفة تصفيتها. لقد كان التناقض إذا بين شكلين للسلطة، الشكل الذي مارسته الجماهير وتشبثت به وهو الادارة الذاتية، والشكل المركزي التسلطي،

للدولة الجديدة، وقد كان التناقض الرئيسي والمتحرك طيلة الثلاث سنوات التي كان فيها ميزان القوى بين الدولة والجماهير في حالة مد وجزر قبل أن يحسم نهائيا لصالح الدولة، اما التناقضات الاخرى التي طفحت بها البادية والتي كانت تدفع بها وتساهم في تعميق التناقض الرئيسي فيها فهي:

1 ــ مشكلة الملكية:

ارتبطت مشكلة الملكية في البادية تاريخيا، بالاستعمار الذي لم يكن دخوله يعني غير دخول علاقات ملكية جديدة، وفعلا انخرطت العلاقات الوافدة في صراع ضد العلاقات القديمة، هذه العلاقات التي كانت تعتمد أساسا على التملك الجماعي والى جانبها بعض اشكال التملك الفردي الهامشية. ونظرا الى أن العلاقات الجديدة هي وليدة الشروط الرأسمالية المتقدمة فقد كان انتصارها أمراً حتميا على علاقات تستند الى وسائل انتاج تنتمي الى عصور ما قبل الرأسمالية رغم جماعيتها التي كانت تشكل لها عنصر قوة، ولقد نتج عن هذا الانتصار تفتيت علاقات التملك الجماعي التي ظلت ترمز الى كل معاني التضامن والتعاون بين جماهير البادية، وترتب عن هذا التفتيت توسع نمطين من الملكية:

أ ــ الملكية الفردية الرأسمالية التي استفاد منها المعمرون أساسا في استيلائهم على الاراضي الخصبة، وبنائهم للمزارع الحديثة بها المعتمدة على الوسائل الانتاجية المتقدمة، ولقد بلغ مقدار الاراضي التي كانت من حوزة هؤلاء والدولة أكثر من مليون هكتار.

ب ــ الملكية الاقطاعية التي عرفت توسعا في اطار التحالف الاستعماري الاقطاعي حيث لم يجد الاستعمار حرجا في أن يكون بعض ثمن هذا التحالف مزيداً من ذلك التوسع، خاصة اذا تعلق الامر بالاراضي التي لم يكن يرغب فيها الاستعمار، بل على العكس يمكن أن يفيده هذا التوسع سياسيا لانه يربط قسما من الجماهير بارادة المخزن، ويجعلها تحت مراقبته الدائمة. اما لماذا انصب اهتمام الاستعمار على الارض أساسا قبل غيرها، ولماذا شغله مشكل الملكية حتى درجة اصداره مجموعة من أولى ما شرع من قوانين في فترات متفاوتة تستهدف جميعا الغاء علاقة التملك الجماعي، واقامة علاقات التملك الفردي على انقاضها؟ فهذا راجع الى شروط المرحلة التي من أهم مميزاتها: استمرار ارتباط الرأسمالية بالارض كمصدر أساس لتجميع رأسمال، إذ استمرت الفلاحة تلعب هذا الدور في وقت لم تكن الصناعة قد شهدت بعد انطلاقتها في المغرب. وفي مرحلة الاستعمار الاولى كان الاتجاه الى الانتاج الفلاحي والمعدني هو الاساس، وحتى عندما بدأ الاستعمار يتجه نحو الصناعة بشكل قوى قبيل الحرب الكبرى الثانية، فان الارض احتفظت مع ذلك بمكانتها في المشروع الاستثماري، وقد كان توسع ملكية المعمرين دائما على حساب مالكيها من المواطنين الذين تحولوا الى عمال زراعيين أو الى بروليتاريا تبيع قوة عملها في المدن. وورثت مرحلة الاستعمار الجديد هذه

الوضعية بكل سلبياتها واستمر مشكل الملكية قائما، واضيف الى المعمرين القدامى، معمرين جدداً استعملوا نفس اساليب اساتذتهم للاستحواذ على اراضي الفلاحين، او عبر طريق التفويت.

2 ــ المغرب النافع وغير النافع:

من النادر أن تجد بلداً رأسماليا تخضع عملية التطور في أقاليمه المختلفة لنغمة واحدة، بل إن القانون الذي يحكم هذه المجتمعات هو التطور اللامتوازن، تعرف فيه بعض الاقاليم نمواً سريعا بل ومذهلا في بعض الاحيان، في حين تتطور باقي الاقاليم ببطء وتعثر في الغالب. إن هذه الوضعية الشاذة تطرح المفهوم الذي ياخذه **الوطن** عند الرأسمالية، انها لا ترى فيه الا تلك الاقاليم المحظوظة التي تمكنها بسبب غناها من تنمية ارباحها، اما الاجزاء الفقيرة التي لا تتوفر على امكانيات مادية وفيرة، فان نصيبها من الرأسمالية يكون هو الاهمال، ولاتشكل في نظر الرأسمالي ــ مادامت كذلك ــ جزءا من«الوطن». إن الرأسمالي حين يتكلم عن (الوطن) لايقصد في الحقيقة الا اجزاء معينة منه، هي تلك التي تستطيع،اذا استثمر فيها رأسماله، أن تدر عليه ارباحا طائلة، وبذلك يتحول التقدم الذي تعرفه بعض الاقاليم في ظل الرأسمالية الى تقهقر في الاقاليم الاخرى،

اما الطبقة العاملة،ومعها بقية الشعب، فان الوطن عندها لاينااله هذا التمزيق، بل ينظر اليه كوحدة لاتتجزأ، بعيدا عن أي تقييم ربحي ضيق يؤدي الى تمييز الأقاليم الغنية عن اختها الفقيرة. فهذا التناقض يجد حله الصحيح في البرنامج العمالي الذي يحرص على أن تسير عملية التنمية بشكل متكافيء،يلعب فيها الاقليم الغني دوراً في الاسراع بتنمية الفقير، وهذه النظرة التكاملية هي التي تعطي لعملية التنمية الاشتراكية بعدها الاجتماعي الذي تفتقده في المشروع الاستعماري.

أما في مجتمع مستعمر، فان قانون التطور اللا متكافيء يصبح أكثر شفافية، ذلك أن الرأسمالي في وطنه القومي يحاول أن يحقق على الاقل، نسبة ولو ضئيلة من التكافؤ، اما وهو في بلد «غير متمدن» فلا يهمه الا نهب خيراته. ففي مناطق غنية بالمعادن مثلا يهتم الاستعمار ببناء الطرق والمرافيء... وادخال الكهرباء واحداث المباني... الخ لتسهيل عملية الاستغلال، أما في الاقاليم الفقيرة فلا يحدث شيء من هذا اطلاقا، ولا يهتم الاستعمار بتغيير أي شيء من واقعها، لقد ظلت، مثلا، مناطق جبلية في المغرب مجهولة من طرف الاستعمار، ويمكن التمثيل على التفاوت الخيالي الذي حدثته المرحلة الاستعمارية بين مدن وسهول الغرب من جهة والمناطق الجنوبية أو الشمالية من ناحية أخرى، ففيما كانت عملية البناء والتشييد تجري في المنطقة الاولى، ظلت مرافق الحياة في الجنوب والشمال على ما كانت عليه من أساليب بدائية في الانتاج والتبادل والنقل، ولقد لعبت هذه الاقاليم الفقيرة دوراً طليعيا في النضال الوطني، ولم

توقف لحظة عن مناهضة الاستعمار، وحين انطلقت حركة جيش التحرير شكلت هذه المناطق الرافد الاساسي لها، ولما حلت المرحلة الاستعمارية الجديدة ازدادت ملامح التفاوت بروزاً، فمع التوسع الهائل والممنهج الذي ميز المرحلة في نهب خيرات البلاد المعدنية منها والزراعية. ازدادت بعض الاقاليم غنى ودينامية، أو ظهرت الى الوجود مراكز مدنية جديدة، ولا أدل على ذلك اكثر من الدور الاستقطابي الاستحواذي الذي اصبحت تلعبه الدار البيضاء في العملية الانتاجية لمجموع البلاد، بينما بقيت مناطق بأتمها مبعدة لا تلعب في هذه العملية غير دور هامشي. لقد كانت النتائج الاولى لهذه الوضعية عقب الاستقلال مباشرة، تلك الهبات الشعبية التي كانت الاقاليم الافقر مسرحا لها، فقد ثارت منطقة والماس في الاطلس المتوسط والتحقت بها مناطق من تازة واستمرت انتفاضتهما دون أن تقوى الدولة على قمعها وفي نفس الوقت، أي في أواخر (1958) اندلعت حركة الريف بكل زخمها الشعبي، ولم يهدأ أقليم وجدة لحظة، الشيء الذي كان يثير قلق الاستعمار. وثار القائد البشير في بني ملال. أما في الجنوب فقد اعلنت الريش العصيان، واستغل عدى أوبيهي الشرط الثوري عند سكان ورزازات في حركته المسرحية واعتصم الشافعي بالجبال قرب مراكش.

هل يمكن القول إن التناقض بين المغرب النافع وغير النافع قد امحى بعد أن استقرت الاوضاع نسبيا لصالح السلطة ؟ هذا ما يمكن أن يوحي به ظاهر الأشياء. أما حقيقة الامر فهي أن التفاوت الصارخ الذي أمسى يميز أوضاع الاقاليم، والناجم عن عملية النهب المفرط لخيرات البلاد، والتمييز بين الاقاليم، لن يتوقف عن ممارسة فعله، بل سيزيد الوضع تأزما، وإذا ما أصبحت انتفاضات السنوات الاولى من الاستقلال غير ممكنة التكرار بنفس الملامح في شروط الوضع الراهن، فإن هذه الاقاليم المنتفضة بالامس، أصبحت تشكل اليوم رأس الرمح من واقع الصراع الطبقي الذي تخوضه جماهير المغرب ضد شروط التبعية الاستعمارية.

3 ـــ شمال وجنوب :

إن من جملة المعضلات التي خلفتها المرحلة الاستعمارية، معضلة التفاوت في درجة النمو الاقتصادي بين الشمال والجنوب، ومهما حاولنا التماس مبرر لهذا التفاوت من غنى الامكانيات الطبيعية التي تميز الجنوب عن الشمال، فإن هذا المبرر يبقى جزئيا رغم وجود ما يرجحه في الواقع الموضوعي، ذلك لان تفاقم التفاوت، بالاساس، يرجع إلى أسباب تاريخية جعلت المنطقتين تنفصلان عن بعضهما وترتبط كل منهما بإحدى الدولتين الاستعماريتين : فرنسا واسبانيا حوالي نصف قرن.

لقد كان المغرب مطمع عدد من الدول الاستعمارية، خلت تناقضاتها فيما بعد بانتهاء المغرب نصيبا لفرنسا واسبانيا، ولما كانت العلاقات اللامتساوية الناجمة عن التطور اللامتكافيء هي السائدة بين الرأسماليات فيما بينها، فقد كان طبيعيا أن تستأثر فرنسا بالمنطقة الخصبة على حساب اسبانيا الضعيفة. غير أن الذي يحصد النتائج السلبية لهذه (اللامساواة) هو المغرب، فقد عجز الاستعمار الاسباني عن إحداث أي تحول يذكر في البنيات الاقتصادية

والاجتماعية للمنطقة، نظرا لتخلفة التكنولوجي وضعف امكانياته المادية، وبدل أن يشكل دخوله عنصر صرح لهذه البنيات وللعلاقات القائمة عليها وجد نفسه مرغما على الابقاء عليها والتعايش معها في أساسياتها ومن ثم فليس من قبيل المصادفة أن يشكل الشمال الفقير المركز الاساسي لتواجد جيش التحرير، فبالاضافة إلى الدور البارز الذي لعبته تناقضات الامبرياليات في الاسراع بنمو وتعاظم الكفاح الوطني، شكلت أوضاع المنطقة مناخاً ملائماً هيأها لتحتل موقعا طليعيا في الكفاح المسلح ضد الاستعمار. أما في المنطقة الجنوبية فقد حدث عكس ذلك تماما، إذ استطاع الاستعمار الفرنسي، بحكم مستواه التكنولوجي المتطور، والخلفية المادية والحضارية الضخمة التي يستند إليها أن يقلب كثيرا من البنيات والعلاقات التقليدية ويفرض بدلها بالاساليب التقنية الحديثة بنيات وعلاقات جديدة، لاستغلال الطاقات والموارد والسوق، ويشيع فضلا عن ذلك نمط حياته وقيمه الثقافية.

ولما جاءت سنة (1956) وجد المغرب نفسه وجها لوجه أمام هذا الارث : جنوب متقدم نسبيا يستخدم الطرق التقنية الحديثة في الانتاج ويتوفر على بنية تحتية مهمة؛ وشمال فقير ومتخلف لم ينل من المرحلة الاستعمارية غير حظ متواضع جداً من هذه التقنية. فما السبيل لحل المشكل ؟ إن المغرب الذي نهج الطريق الرأسمالي ليس عاجزاً عن حل المشكل وحسب، (إذ كيف يمكن لرأسماليتنا أن تحل تناقضا هي نتيجته ؟) بل الادهى أن وضعية التفاوت لم تزد على يدها إلا تفاحشاً، إن الدور الذي لعبه الاستعمار في تكريس هذا الاختلال، قد ذهبت فيه مغرب ما بعد 56 شوطاً بعيداً. أخذ في بعض مظاهره ما يشبه استعمار الجنوب للشمال.

4 ـ المدينة /البادية :

مع دخول الاستعمار ازداد التناقض بين أوضاع المدينة والبادية حدة فبعد أن كانت البورجوازية المغربية في أواخر القرن التاسع عشر 19 تتلمس طريق نهضتها وتحاول الخروج من شرنقة المدينة وربط البادية بمصالحها أكثر فاكثر، فاجأها الاستعمار بهجوم مشروعه الاقتصادي المتفوق الذي أحال طموحاتها إلى دخان، وحكم عليها بالتبعية له، وهكذا انتكست البورجوازية ووجدت نفسها مرغمة على التكيف مع شروط النظام الاستعماري، ومن أبرز مظاهر هذا التكيف الانكماش الذي فرض عليها حتى تتلاءم مع المصالح الاقتصادية للاستعمار، ومنذ ذلك الوقت ازدادت عزلة البادية سياسيا عن المدينة، وانكمشت كل منها على نفسها وحرص الاستعمار على تكريس هذه الوضعية، فحافظ على نقاط المراقبة على مداخل المدن، وقلل إلى درجة كبيرة من فرص الاتصال السياسي بين المدينة والبادية، وقد ازدادت هذه الاجراءات شدة طيلة فترة المقاومة الباسلة، التي واجهت بها البوادي الجيش الاستعماري خوفاً من تسرب اخبار العمليات العسكرية الذي قد يؤدى إلى انتفاضة المدن تضامنا مع البادية. ولم يتوقف الحصار السياسي المضروب حتى مع سكوت المدافع (1935) بل استمرت حالة الحصار هذه طيلة الفترة الاستعمارية بكاملها.

أما على الصعيد الاقتصادي فقد عرفت العلاقات بينهما توسعاً شكلت فيه البادية سوقا رائجة يصرف فيها الاستعمار سلعه، ومصدراً للطاقة البشرية التي يحتاجها للصناعة في مدن المغرب والمركز. ولقد انعكست هذه الوضعية على البادية بالخصوص، بشكل خطير، فلم تنته المرحلة الاستعمارية حتى تحولت إلى كيان محطم وشائخ اقتصاديا واجتماعيا، أما المدينة فكانت محنتها بالقياس إلى ما عانته البادية أقل بكثير.

ونظرا إلى أن البادية كانت ضحية اضطهاد مزدوج شارك فيه الاقطاع إلى جانب الاستعمار ومنذ، المرحلة الاستعمارية، انحصر نشاط البورجوازية المغربية في المجالات التي كان الاستعمار يسمح لها بها داخل نطاق المدينة، الشيء الذي جعلها تعرف تحولات اقتصادية واجتماعية وتصيب بنتيجة ذلك حظا من الخدمات العامة، ومقابل هذا الانتعاش في المدينة ظلت البادية ترسف في أغلال الاضطهاد والفاقة والجهل. فماذا حدث في مرحلة الاستعمار الجديد ؟

ازدادت الهوة بين المدينة والبادية عمقا فقد عكفت الدولة على حل نسبي لمشاكل المدينة فشيدت المدراس والمستشفيات وأصبح ساكن المدينة يتمتع بعدد من «الامتيازات» بالمقارنة مع البادية، وقد لعبت البورجوازية المتمركزة بالمدن بخبرتها دوراً بارزاً في الدفع بحركة التغيير في المدينة خطوات. أما البادية فلم يمسها شيء من هذا كله، ولولا مبادرة جماهيرها في حملة مشاريعها الجماعية كبناء الطرق والتشجير وبالخصوص حملة بناء المدارس وإلحاحها في طلب المدرسين، لظلت في جهل أكثر مما هي عليه، وكيف يمكن للدولة أن تبنى المدارس لها، وهي التي عملت فيما بعد على انتزاع هذا المكسب من الجماهير بعد أن تبدلت الظروف لصالحها. إن البورجوازية التي ظلت مشروطة بنشاطها في المدينة، لم تقم بأي دور من أجل تغيير شروط التخلف في البادية، وإن قبولها تقمص الدور الذي حددته لها المرحلة الجديدة قد ساهم في تعميق الهوة بين المدينة والبادية التي لم تزدد مع مر الايام الا تفاقما، الشيء الذي يؤكد أن أي محاولة للتخفيف من حدة هذا التناقض في ظل الوضع الاقتصادي الاجتماعي القائم محكوم عليها بالفشل سلفا.

ت ــ مواقف القوى الاجتماعية :

تباينت مواقف مختلف الأطراف من البادية تبعا لتباين مصالحها وأهدافها فيها :

أولا ــ الاستعمار : كان يهمه الحفاظ على مصالحه بها في الدرجة الاولى، فقد بقي في يد الاستعماريين بعد الاستقلال حوالي مليون هكتار، ولذلك ظل يرقب البادية بعين ساهرة. استمر على الوفاء لحليفه القديم : الاقطاع الجهوي، وعمل على تقويته ليلعب دور حارس أمين لمصالح سيده في البادية وفي الوطن عموما. وأيد طموحات الاقطاع المركزية، وقدم له المساعدة الضرورية (بناء مدرسة لاطر الداخلية، مثلا، بمساعدة فرنسية) وأعاره قسما من ضباطه ليشرفوا على تدريب الجيش، وطيلة الفترة التي كانت فيها الدولة منهمكة في بناء جهازها السلطوي، استمر الجيش الاستعماري يؤدى مهمة القمع، والامثلة على تدخل الجيش

الفرنسي لقمع تحركات الجماهير كثيرة : تدخله في مراكش لايقاف عمليات التطهير التي استهدفت لها عناصر من عملاء الاستعمار من طرف الجماهير/ تدخله لقمع جماهير مكناس التي خرجت تستنكر حادثة اختطاف الزعماء الجزائريين الخمسة/هجوماته المتكررة على وجدة والاقليم / التنسيق بين الجيشين الفرنسي والمغربي بأكادير في مواجهة جيش التحرير المتجه إلى الصحراء لمواجهة احتمالات الموقف. وساهم الاستعمار الاسباني بدوره في تقديم العون إلى الدولة بتدريب عشرات الضباط.

أما موقف الاستعمار من جيش التحرير فلم يلحقه أي تغيير من حيث المبدأ، فقد احتفظ بعدائه المطلق له، وظل يتربص الفرصة لتصفيته، وكانت مؤامرة (56) تستهدف جيش التحرير بشكل مباشر، وحين قرر جيش التحرير مواصلة الكفاح المسلح في الجنوب، فزع الاستعمار الفرنسي، وحشد جيشه على الحدود الجنوبية ــ الجزائرية، وظل يرقب تحركاته بقلق.

لقد ظل الاستعمار سيد الموقف بلا منازع، والساهر على سير الاوضاع وفق ما خطط له، و وفق بكل ثقله وقوته إلى جانب السلطة، ومحضها ثقته، واهتم بتوفير الظروف الضرورية حتى تتم الولادة في أحسن الشروط : ولادة مرحلة الاستعمار الجديد، التي لم يفتأ يتعهدها بحدبه ورعايته حتى ترشد وتصبح قادرة على إرساء سلطتها.

ثانيا ــ الاقطاع المركزي : ارتبط بالاستعمار واتكأ على دعمه، وظل السند الاساسي الذي يستمد منه قوته، كان هدفه الاول من البادية : اخضاعها لسلطته وتحقيق الحكم المركزي. ولكن يقف في وجه هذه الرغبة قوتان : الاقطاع الجهوي : الذي لن تتحقق المركزية إلا على حسابه، والذي ظل يتمتع بنوع من الاستقلال في كنف الاستعمار. طرح الاستعمار صيغة لحل هذا التناقض بين حليفيه : أن يقدم الاقطاع الجهوي تنازلا سياسيا للمركزي، على أن يحتفظ بامتيازاته الاخرى كاملة، وكانت هي الصيغة التي قبل بها المركز، والتي استطاع ضمنها وطبقا لقانون القوة أن يصفي بعض رجال الاقطاع المحليين، وأن يسطو على جزء من ممتلكات البعض منهم، وأن يتحالف مع من هم أقل خطرا، والذين قبلوا الانضواء تحت مظلته.

أما العقبة الكأداء في وجه توسع المركزي فهي تلك التي شكلها جيش التحرير، وهو قد كان مستعدا للمساومة مع القوى الاخرى، ولكنه لم يكن مستعدا لتقديم أي تنازل لهذا الاخير (أي جيش التحرير). ولذلك ارتبطت مهمة تصفيته بتحقيق هدفه الرئيسي، وحسم مسألة السلطة لصالحه وبواسطته هو نفسه بشكل نهائي. فلم يتردد لحظة في نصب الشراك له، وقد مرت عملية التصفية بمراحل : رفع في أولها شعار الالتحاق بالجيش النظامي، واستعملت أساليب متعددة لاجتذاب قادته، وفي هذا الاطار جرى تعيين بعضهم في مناصب ادراية عالية، وحين نزل جيش التحرير إلى الجنوب لمواجهة مهمة التحرير، ازداد قلق الاقطاع، ودخل في تكتيك تصفوي جديد يقوم على امداد الحكومة لجيش التحرير بمساعدة شبه رسمية ودائمة حتى إذا أمن ارتباطه بها واعتماده عليها لم يقو على الصمود بعد قطعها بشكل مفاجىء فيؤدي

ذلك إلى ارباكه واضعافه، وقد نجحت الخطة نسبيا، حتى وجد جيش التحرير نفسه من أجل تأمين المؤن الضرورية لاستمراره يتعارض مع جماهير المنطقة التي لم يهيئها سياسيا لادراك طبيعة المرحلة، وللمبادرة بالتالي لدعمه عن وعي واقتناع، بدل لجوئه هو مضطرا إلى انتزاع هذا الدعم كرها، وطيلة هذه الفترة التي تميزت بمواجهة مكشوفة بين السلطة والجيش.

كانت البورجوازية تقف إلى جانب السلطة في هذا الصراع، باستثناء محمد علال (الفاسي)، غالبا، الذي كان نغمة ناشزة في الموقف البورجوازي، فقد دعم الجيش في الجنوب وساهم في قيادته السياسية.

أما الهدف الثاني للاقطاع المركزي فهو التوسع الاقتصادي. لقد ظل يعاني من ضعف تواجده الاقتصادي في البادية، وأن نجاحه في تثبيت سلطته هو الخطوة الاساسية على طريق خلق مصالح اقتصادية هنالك. ولقد أيد، من طرف خفي، قرارات المجلس الحكومي الهادفة إلى مصادرة ممتلكات الاقطاع المحلي من الذين تعاونوا مع الاستعمار، فهذا أقرب سبيل يمكنه من وضع اليد على بعض هذه الممتلكات التي تثير شهيته. غير أنه لم يكن يؤيد الصيغة البورجوازية التي تميزت بالتطرف والشمول، لقد أراد أن تتحقق المصادرة ولكن بشكل جزئي لا يثير حفيظة باقي الاقطاع. أو تنبه الاستعمار.

يضاف الى ذلك قمع الفلاحين وفي مقدمته ضرب حركة الريف الذي كشف للجماهير طبيعته (الاقطاع المركزي). ثم الوقوف في وجه توسع (حزب الاستقلال)، وفي هذا الاطار تأسست (الحركة الشعبية) التي ظهرت إلى الوجود كتوسع سياسي مركزه البادية في اطار الصراع الدائر بين الاقطاع والبورجوازية حول مسألة السلطة، وقد كان واضحا للطرفين معا، أو على الاقل للبورجوازية، أن الطريق إلى السلطة يمر من البادية، وأن الذي يستطيع الفوز في الرهان، هو من يملك القدرة على انتزاع ورقة البادية واستعمالها في الوقت المناسب، وهذا يطرح ضرورة تنظيمها كمهمة أولية. وفي هذ السياق يمكن فهم التحركات المكثفة التي شرع فيها اليوسي منذ 1956 في الاطلس المتوسط (موطن قبيلته) التي شكلت الارهاصات الاولى المترجمة لرغبة الاقطاع في ايجاد هذا الاطار السياسي. لكن المشكل القانوني طرح نفسه على الاقطاع بحدة خصوصا بعد رفض المجلس الحكومي الذي كانت تسيطر عليه أغلبية استقلالية، اصدار لائحة الحريات العامة التي ليست سوى مظهر خارجي لصراع سياسي في العمق، ادراكا منها لمقاصد الاقطاع في توقيت صدورها في ذلك الحين. ولما كان الاقطاع يهمه تأمين الغطاء القانوني لتصرفاته، فقد سلك من أجل أن تأخذ اللائحة طريقها إلى النور درب المساومات وتقديم العروض السخية التي توجت بصفقة التحالف المصلحي مع الجناح البورجوازي العقاري، الذي كان يتسنم ذروة المجلس. وبموافقة المجلس على صدور اللائحة كان الاقطاع قد ربح خطوة ضد البورجوازية. ومن المفارقات التاريخية العجيبة، تبادل الادوار بين الطبقتين فأصبح الاقطاع يدافع عن (الليبرالية) ويطالب بصدور اللائحة من أجل فرض نفوذه فيما بعد، وأصبحت البورجوازية تناهض الليبرالية وتتنكر لها.

أما الاهداف التي توخاها الاقطاع من وراء تأسيس (الحركة) فيمكن تلخيصها في :

1 ــ منافسة (حزب الاستقلال) في السبق إلى البادية، والاسراع بايجاد الاطار التنظيمي الذي يمكن الاعتماد عليه من دعم مواقفه، والوقوف في نفس الوقت في وجه تقدم (الحزب). لقد بدأ النشاط المتزايد (الحزب) يهز مواقع الاقطاع الجهوي في البادية، بعد أن حطمت سنة (56) الجدار الذي كان يحول بينه وبين البادية. إن البادية التي لم تعرف غير النهب والاستغلال والقهر الايديولوجي، تفتح الآن أبوابها لرياح السياسة وهي إذ تفعل، تخطو بذلك خطوة واسعة على طريق امتلاك أداة تحررها، لقد كان الاقطاع يعي أن أي نجاح تحرزه جماهير البادية في هذا الاتجاه، يعرض نفوذه المادي والايديولوجي للزوال، ويحول البادية إلى أرض معادية، لهذا انصب اهتمامه منذ زمن مبكر على ايجاد الاطار السياسي القادر على التصدى لهذا المد السياسي الذي بدأ يجتاز البادية، وليشكل في الوقت نفسه اداته لنشر ايديولوجيته وللدفاع عن سياسته. إن الادارة رغم طابعها المركزي والمنظم لم تكن مؤهلة بعد لتلعب هذا الدور على الوجه المطلوب لما تنطوي عليه من أخطار أي محاولة للزج بها في صراع سياسي مباشر في وقت لم تأخذ فيه السلطة وضعها الطبيعي بعد، أضف إلى هذا عدم رغبة الاقطاع في التنازل عن بعض مظاهر الحياة، ناهيك عن وجود نسبة عالية من الاطر الادارية ذات الانتماء السياسي المحدد التي لا يمكن الاطمئنان إليها، لكنها يمكن أن تفيد مع ذلك ببعض الادوار الصغيرة التي لا تتعدى العرقلة أو التضييق على بعض النشاطات السياسية. لهذا شكلت معضلة ايجاد الاطار السياسي، الذي يستطيع النهوض بهذا الدور، ويؤمن للاقطاع ظاهريا بقاءه في الظل بعيدا عن حلبة الصراع، احدى المهمات التي طرحت نفسها عليه بحدة، وقد وجد في احرضان والخطيب ظالته المنشودة، فبالاضافة إلى ما يتمتعان به من شعبية نتيجة ماضيهما في جيش التحرير يستندان فوق ذلك إلى ولاء قبيلتيهما الذي يُشكل مصدر قوة يستمدان منه نفوذهما السياسي، وهكذا استطاع الاقطاع، باستغلال لامكانيات أحرضان، أن يستفيد، لا فقط، من بناء أداة سياسية يمكنه الاعتماد عليها في البادية، بل استطاع أيضا، عن طريق هذا التوجيه أن يخلق مهمة يبعده بها عن التفكير في اللالتحاق بالجيش النظامي، تخوفا من عصبيته التي يمكنها أن تشكل داخله مركز قوة لا يضاهي في ممارسة التأثير وفي النفوذ. وجد الاقطاع نفسه، أمام غياب الطبقة الاجتماعية التي يمكنها أن تشكل الاساس المادي والسياسي لسلطته في البادية، مضطرا إلى الاتكاء على عنصر العصبية لمواجهة نشاط (الحزب) ولسد الفراغ الذي تعاني منه الدعاية الاقطاعية.

2 ــ أن تشكل (الحركة الشعبية) أداة الاقطاع في البادية للتعبير عن ايديولوجيته، بعد أن وجد نفسه في حاجة ماسة إلى مثل هذه الاداة، ليس فقط لمواجهة القيم الايديولوجية الجديدة التي أصبحت تهب على البادية، وإنما أيضا وبالاساس ، لتقوم بتبرير واقع الاستغلال المضاعف الذي تعاني منه جماهير البادية.

3 ــ أن تساهم كذلك في تحريف التوجيه السياسي في البادية عن مساره الصحيح، وطمس حقيقة الصراع، وتزييف مطامح البادية في الانعتاق، وأن تشكل الاطار الذي يتلاءم

والأوضاع السياسية السائدة، وتكون في نفس الوقت مركزا لتجمع اليمين وأداة في يد الثورة المضادة.

ثالثا ــ الاقطاع الجهوي : يمكن القول أنه كان أكثر أطراف التحالف الاربعة تضرراً من مجيء الاستقلال، فقد انتزع منه في المرحلة الجديدة النفوذ السياسي الذي ظل يتمتع به في المرحلة السابقة، ولتركز مصالحه بالبادية أساسا، ولصعوبة وضعه في الشروط الجديدة، شكل الحلقة الضعيفة في التحالف الجديد. أما أهدافه فتتلخص في :

1 ــ الحفاظ على مصالحه، فقد استطاع أن يبني مصالح واسعة في المرحلة الاستعمارية، مستفيداً في ذلك من التحالف مع الاستعمار ومن نفوذه في البادية، وامسى همه في المرحلة الجديدة هو الحفاظ على تلك المصالح، ومن أجل ذلك ارتبط بالاستعمار، القوة الوحيدة التي يستطيع أن يمحضها ثقته

2 ــ ولانه لا يمكن أن يعيش بدون سند خارجي، فقد جسد هذه الحاجة في رغبته في الحفاظ على تحالفه مع الاستعمار.

3 ــ ضرب سلطة الجماهير : لقد كشف الاقطاع الجهوي عن عدائه السافر لجماهير البادية في عدة مناسبات، وفي هذا يلتقي مع حليفه : الاستعمار والاقطاع المركزي، بل وقد يبزهم فيه، وفي اطار التنافس بين الاقطاع و(الحزب) حول البادية، وقف الاقطاع الجهوي إلى جانب شقيقه في خلق عراقيل للمجهودات التنظيمية لحزب الاستقلال.

• أما عن التناقض بين الاقطاعين (المركزي والجهوي) فقد تركز حول مسألة النفوذ السياسي الذي أصر الاول على تجريد الثاني منه : لقد تنازل الاقطاع الجهوي رسميا عن هذا الامتياز في مسرحية «التوبة» (1955). غير أن عددا من أفراده استمروا عمليا في ممارسة امتيازاتهم القديمة، مما أدى إلى أنفجار هذا التناقض أحيانا في أشكال عنيفة (حركة «عدي أو بيهي» مثلا، والتي كانت مناسبة أعطى فيها المركز درسا عن المصير الذي ينتظر كل من يفكر في الخروج عن طاعته منهم.) ومن التناقضات التي واجهها هذا الاقطاع كذلك، اضطرار. لكي ينسجم مع التعديلات التي أصبحت تتطلبها الادارة الجديدة، إلى التكيف مع الشرط الجديد.

رابعا ــ البورجوازية الوسطى : وقد مثلها سياسيا كل من (حزب الاستقلال) و(حزب الشورى والاستقلال) :

1 ــ **حزب الاستقلال** : تركز نشاطه التنظيمي والسياسي طيلة المرحلة الاستعمارية في المدينة، لذلك وجدّ نفسه مع حلول المرحلة الجديدة، وفي اطار الصراع على السلطة، يتجه إلى البادية لتدارك هذا النقص. وكان هدفه من التوسع في البادية : أ ــ تحقيق نفوذ إداري عن طريق تشجيع أطره للالتحاق بالوظائف في البادية، وقد التقى مع الاقطاع، الذي كان يعاني فقراً في الاطر، حول هذه النقطة. وكانت الخلفية الفكرية وراء هذا التوجيه. هي مساهمة (الحزب) في بناء السلطة على أساس أنها ستؤول إليه عندما يحسمها لصالحه في المركز؛ ب ــ لادرتوسع سياسي وتنظيمي حتى يستطيع كسب البادية إلى جانبه في صراعه مع الاقطاع،

وحتى لا يدع هذا الاخير يستخدمها ضده. واعتمد في الاتصال بالجماهير على موظفي الادارة، وكثيراً ما كانت طرقه في الاتصال تتداخل مع أساليب الادارة، ولأن المهمتين تتنافيان بطبيعتهما فقد أوقع أطره في البادية في تناقض ذاتي بين مهمتي الحزب والسلطة الادارية. وبنى تنظيماته على أساس التقسيمات القبلية القائمة. على أن مجهوداته التنظيمية اصطدمت بعوائق وضعها الاقطاع الجهوي في طريقه في عدة أقاليم، فارتفعت شكاوى هذه الاطر احتجاجا على التعسفات. وردت صحف آنذاك بسياط من النقد مشهر بـ : العقلية الاستعمارية التي من وراء هذه الاجراءات. ولم يكن هذا النقد يهدف إلى أكثر من إثارة ضجة تجعل القواد يكفون عن اجراءاتهم، وليس صادراً عن موقف مبدئي عام. تـ ــ أما طموحاته الاقتصادية من وراء هذا التوسع فهي ضعيفة لا تتعدى المردود المادي الذي كانت تجنيه أطره من مناصبهم الادارية. ما هي نتائج مجهودات (الحزب) في البادية ؟ ان الذي حصد نتائج هذه المجهودات هو السلطة المركزية، حيث ابتلع جهازها الاداري أطر الحزب، فاستحال إلى هياكل فارغة، واستفاد الاقطاع من تخلي البورجوازية عن الامة لتعميق الهوة بينهما، وضربهما ببعضهما حتى يتمكن من البقاء في الحياد بعيداً عن الصراعات، وعرف أخيراً كيف يحول مجهودات البورجوازية لتصب في قناته وتخدم أهدافه وترتد ضد الاهداف التي جاءت لخدمتها أصلا.

2 ــ **حزب الشورى والاستقلال** :خرج إلى البادية بحثا عن متنفس تنظيمي أمام ضغط وملاحقة حزب الاستقلال له في المدينة، ووجد في موجة التوسع الاداري مناسبة لتحقيق نوع من التواجد عن طريق بعث بعض أطرٍ إلى شغل وظائف في البادية، ونظرا لسيادة (الحزب) شبه المطلقة في المدينة،فقد كان من جملة الاهداف التي توخاها في الانفتاح على البادية، البحث عن حلفاء، فلم يكن ضعفه يمكنه من الصمود في وجه (الحزب) عدوه التقليدي. ولأن بعض مناطق البادية كانت آنذاك مسرحا للدعاية الاقطاعية التي افتتحها (الحسن اليوسي) بالتشهير (بحزب الاستقلال) فقد تسارعت صحف (حزب الشورى) إلى نشر بعض تصريحاته تعبيراً عن تأييدها الضمني له، وانتقل الصراع بين الحزبين (الشورى والاستقلال) وحزب الاستقلال، إلى البادية، فأصبح الموظفون المنتمون لحزب الشورى يتعرضون للمضايقات والاختطافات بل حتى الاغتيال، ومنع بعض الموالين لحزب الاستقلال نشاطات (حزب الشورى) في مناطق قيادتهم. والنتيجة، أن (حزب الشورى) حاول الخروج من الازمة الخانقة التي كان يتخبط فيها، عن طريق البادية، فأخفق، ولم يتجاوز تمثيله داخل الادارة نسبة ضئيلة جداً، ولم يفلح في ايجاد حليف هناك يمكن الاعتماد عليه، كما أن تواجده التنظيمي ظل ضعيفا جداً ومقتصراً على بعض المناطق فقط (كالرباط والشاوية وتازة).

خامساً ــ البورجوازية الكبرى : ارتبط الجناح المالي منها بالاستعمار وتقدم حادثة المسمى بـ (العياشي) مثالا بارزاً. فقد حاول فتح فروع لابناك فرنسية في أكادير. فتصدى (علال الفاسي) لهذه المحاولة، وأثار حملة ضد المشروع باعتباره مشروعا استعماريا جديداً. أما الجناح العقاري فقد قبل المخطط المخزني وربط به مصالحه، وانشق عن (حزب الاستقلال) الذي كان من قبل أداته السياسية، ولم يكن للجناحين معا، المالي والعقاري، أي مطمح آتٍ في البادية.

سادسا ــ **البورجوازية الصغيرة** : تنوعت مواقفها من البادية، حسب تنوع الفئات المكونة لها، ومن ذلك موقف :

أ ــ **الجناح التكنوقراطي** : كانت الصيغة التي عبر فيها عن موقفه في تلك المرحلة من مشاكل البادية والحلول التي ارتآها هي (التصميم الخماسي)، وبالرغم من الطموحات الوطنية والتقدمية للتصميم فإنه لم يول الاهتمام المطلوب للمسألة الفلاحية. وقد وجد نفسه، من أجل تلبية حاجات الصناعة التي أعطى لها (التصميم) الاولوية، يتخذ موقفاً خجولاً من أوضاع البادية، ويعمل على تكريس شروط الاستغلال، مهادنا بذلك مصالح الاستعمار والسلطة المركزية، لان أي مساس بهذه المصالح يعرض اختيار (التصنيع) للفشل، مبررا هذا التوجه بكون تمويل المشاريع الصناعية يعتمد (في التصميم) على عائدات الانتاج الفلاحي؛ الخاص بالتصدير، من العملة الصعبة، الذي هو في أغلبه بيد المعمرين. وخوفا من مضاعفات موقف الدولة الفرنسية، آثر التصميم السكوت والتواطؤ عمليا مع الاستعمار والسلطة المركزية، واكتفت أهدافه بمحاولة تحديث الفلاحة مع الحفاظ في نفس الوقت على البنيات القائمة، وفي هذا الصدد تقرر انشاء مدارس لتكوين مهندسين وتقنيين فلاحيين، وبناء معمل للجرارات انتهى إلى الفشل، وانشاء القرض الفلاحي وتوفير الاسمدة للفلاحين وتبنى تطبيق عملية الحرث الجماعي وهو يقوم على ضم مجموعة قطع أرضية إلى بعضها في عملية حرث واحدة) الذي فشل هو الآخر، لان لم يهتم بتهييء الفلاحين لقبوله، ولم يكن مهتما بمشاركتهم الفعلية في التقرير والتنفيذ، وأكثر من ذلك كان المشروع حلا جزئيا يتهرب من المشاكل في الفلاحة.

هل كان بإمكان أي برنامج اصلاحي (بورجوازي أو بورجوازي صغير) أن يحل المشاكل الاساسية للبادية المغربية ؟ إن تجربة عدد من بلدان العالم الثالث التي طبقت فيها مثل هذه البرامج اثبتت خطأ مثل هذا التصور. لقد استطاعت بعضها فعلا أن تعدل من بعض شروط الاستغلال، بالتخفيف منها أو تجميدها لفترة على الاكثر، ولكنها لم تستطع الغاءها، لانها بدل أن تتجه إلى جذور الظاهرة (الاستغلال) فتقطع دابرها، تكتفي بإزالة الاعراض فقط، مما لا يتعارض مع (جوهر) الاستغلال وإن تبدلت اشكاله. ليس معنى هذا أن الاستغلال هو قدر البادية الابدي، لان برامج الاصلاح عبرت عن فشلها ليس فقط في حل مشكل البادية، وانما ايضا في حل المشكل العام أي مشكل : التبعية. وقد اثبتت التجربة عجز جميع هذه البرامج عن مناهضة الامبريالية وانجاز ثورة ديمقراطية شعبية، وذلك راجع إلى الطبيعة الطبقية لاصحاب هذه البرامج وإلى الشرط التاريخي الذي أصبح يفرض تحديات لا تستطيع أن تجابهها غير طبقات أخرى اكثر جذرية في مواقفها. وأثبتت التجربة كذلك أن مهمة التصدى لجذور الاستغلال خارج محط الشعب (وفي مقدمته الطبقة العاملة) هو وهم خالص، لأنه الاختيار الوحيد المؤهل تاريخيا للقضاء على جذور الاستغلال وانجاز التحول الاشتراكي.

ب ــ **الجناح السياسي**: كان أكثر قربا الى تجسيد مطامح الجماهير من الاول. إذ ادرك حاجتها الى الاطار الذي ينظم نضالها، فعكف على تأسيسه، فكانت (طريق الوحدة) هي الصيغة التي عبر فيها عن نفسه.

طريق الوحدة : واجهت المغرب مشكلة اعادة توحيد شطري الشمال والجنوب، كواحدة من أهم المعضلات التي أورثها له الاستعمار. واحتلت حيزاً مهما من تفكير الاطراف المختلفة التي ارتبطت مصالحها بانجاز التوحيد في اسرع وقت .ف (الدولة) التي كان يهمها قبل كل شيء بناء سلطتها، كانت ترى فيه (التوحيد) خطوة أساسية في توسيع وتعزيز هذه السلطة، وقد شاركتها البورجوازية نفس الاهتمام انطلاقا من رغبتها في ان تكون السوق الوطنية رحبة بقدر رحابة طموحاتها. أما البورجوازية الصغرى فيمكن قياس مصلحتها في التوحيد بمقدار حماسها له ذلك انها نصبت نفسها وكيلا هاتين الطبقتين — حيث لم يكن بامكان أي منهما حل مشكل من هذا المستوى بمفرده — في تقديم صيغة التوحيد، والقيام في نفس الوقت بمهمة الاشراف والتوجيه

أخذت الصيغة شكل طريق اطلق عليها (طريق الوحدة) يتم شقها بين المنطقتين بالاعتماد على العمل التطوعي للشباب، وفعلا سارع الشباب من مختلف الاقاليم استجابة للنداء، لكن السؤال الاساسي الذي يجب طرحه هو: في أي اطار سياسي وظفت البورجوازية الصغيرة هذه المبادرة؟ هذا السؤال يكتسي أهمية خاصة اذا نظرنا الى خلفية المشهد، حيث نجد (جيش التحرير) يقاوم في ظروف جد صعبة محاولات السلطة الرامية الى تصفيته، فإذا كان الشمال هو منطقة التواجد الاساسية لجيش التحرير سابقا، فان عملية ضرب تراثه بالمنطقة يقتضي شق «طريق».... هكذا وجدت البورجوازية الصغيرة نفسها في غياب الرؤية السياسية للمشكل تقدم خدمة «تاريخية» للسلطة وتشارك موضوعيا الى جانب «الردة» حين وقفت عند الوجه الجغرافي — الاقتصادي للمشروع. وبذلك لم تدخل في حسابها حقيقة الصراع الدائر بين الطرفين الرئيسيين في التناقض الوطني، ولم تنتبه الى امكانية استغلال السلطة للمشروع في تحقيق أهدافها... / وبالرغم من السلبية العامة التي طبعت المشروع، فانه لم يخل مع ذلك من بعض الايجابيات تشهد على ما تملكه هذه الطبقة من طموحات وطنية ذات مضمون اقتصادي وما تكشف عنه، في كثير من الاحيان من مؤهلات بارعة في حل بعض المشاكل المعقدة بالاعتماد على الشعب دونما لجوء الى الاسلوب البيروقراطي. اما ايجابيات المشروع فيمكن تلخيصها في التالي:

— ان المشروع انجز في اطار نضالي معتمدا على مبادرة وحماس الجماهير، وقد عرف هذا الجناح كيف يوظف هذا الاستعداد عن طريق تعبئة الشعب والاعتماد عليه.

— طموح هذا الجناح لحل تناقضات الشعب من خلال مشاريع عمل أساسا وفي هذا الصدد لعب المشروع دوراً عظيما في خلق روابط تعارف بين ابناء الاقاليم المختلفة وفي محو مظاهر الاحتقار الناجمة عن فروقات ذات طبيعة اقليمية أو لُغوية (طبقية في العمق)

— الاعمال التثقيفية اليومية التي تخللت المشروع، تؤكد مدى اهتمام البورجوازية الصغيرة بتوفير حد ادنى التربية السياسية للشعب وحرصها على ان تكون مرتبطة بالممارسة.

ـــ اعتماد بعض اساليب الانضباط المستمدة من السلوك العسكري، بهدف تربية الشباب على العمل المنضبط والمنظم.

ـــ كانت (الطريق) من أهم بوادر تميز البورجوازية الصغرى من حزب الاستقلال عن قيادته التقليدية، وبهذا الحدث بدأ تفجير التناقضات الوطنية داخل (الحزب) التي كانت محجوبة في مرحلة الصراع الوطني السابقة وكان أداة من أهم أدوات الاستقلال التنظيمي والسياسي للفئات الشعبية الكادحة بقيادة البورجوازية الصغرى عن قيادته البورجوازية، هذا الاستقلال الذي جسده (الاتحاد الوطني للقوات الشعبية) فيما بعد.

لقد مثلت نضالات الفلاحين على امتداد ثلاث سنوات رافعة حركت مجمل الأوضاع، ودفعت بمختلف التناقضات نحو مزيد من الاستقطاب، وعجلت باستجلاء ملامح الصورة لكي تأخذ وضعها القار والطبيعي. لقد كانت البورجوازية أكثر حساسية بهذه الاحداث، التي دفعت بالتناقض الطبقي داخلها سريعا نحو الصدارة ثم الانفجار، وعجز (حزب الاستقلال) عن تحمل سف الهزات التي أصبحت تعتمل داخله، ولم يعد بمقدوره الاستمرار في اداء دوره التقليدي كجبهة تتعايش داخله مختلف الطبقات الوطنية فانفرط العقد، ولم تات سنة 1954 حتى تلاشت آخر الخيوط الواهية التي ظلت تربط الطبقتين الى بعضهما، واعلنت البورجوازية الصغرى تأسيس اطارها السياسي والتنظيمي المستقل. حدث هذا بشكل متزامن مع ما كان يجري بالبادية، وانعكس بشكل قوي على تطور الصراع داخل (حزب الاستقلال) بحيث سارت الاحداث وانعكاساتها في خط متوازن ومتلازم تقريباً.

ج ـــ **جناح العنف**..: ظل بحكم طبيعة ممارسته التقنية الصرف بعيداً عن تجسيد آمال جماهير البادية، وبعيدا عن أن يمارس أي تأثير عليها. ان عناصر هذا الجناح الذين (انتبهوا)، ولكن بعد فوات فرص لا تعوض، لفرض ما أمسى بالنسبة لهم ضرورة ملحة: سيادة اختياراتهم في الدولة، كانوا قبل ذلك قد وقفوا ومارسوا ممارسات لا تمت الى ما اكتشفوا فيه مصلحتهم الطبقية بصلة، ففي ابان المؤامرة الاستعمارية في (اكس ليبان) وفي الوقت الذي رفضت فيه عدة فصائل من المقاومة وجيش التحرير الانصياع للعبة واستمرت في مناهضتها، ومناهضة الاطراف المسؤولة عنها (ولو بغموض واحتشام مرتبك) كان موقف هؤلاء الذين استفاقوا عصراً، ليس هو فقط، الدفاع عن اطراف التحالف الرجعي عمليا وقبول العمل في الوضع «الجديد» بل واكثر من ذلك لمساهمة في التصفية العنيفة للعناصر الثورية في ذلك الحين، اي أنهم هدموا بالضبط القاعدة الوحيدة والاساسية التي يمكنهم بالرجوع اليها ضمان مصالحهم الطبقية، وبالتالي ضمان الانتصار على نفس القوى اليمينية، التي اكتشفوا متأخرين، تناقض مصالحهم معها، وبدلا من اجراء عملية نقد ونقد ذاتي لماضي التجربة المغربية القريب وتجربتهم الخاصة نفسها، واستخلاص ما يلزمهم استخلاصه من ذلك، ومن ثم تلافي ما كان مجال تلافيه ممكنا بعد، استمروا في نفس اختيارهم بالابتعاد عن خط الجماهير واشكال ممارساتها الجماعية

والديمقراطية، هذا الاستمرار لم يتمثل فعلا هذه المرة على سبيل «التصفية» الداخلية للاطر المناضلة (الناشزة)، وانما بممارسة العنف المعزول والفردي البدون أفق.

ان المواقف والممارسات الطبقية التي لا تعتمد ثقة الشعب والثقة فيه خلال تحركها، مصيرها، اذا لم تمارس العنف على الجماهير نفسها، أن تعمل بمعزل عنها بعيداً عن خطها وفي كلتا الحالتين فالمضمون واحد والنتيجة واحدة، هي الفشل في انجاز أي شيء خارج ما يستفيده الخصم من مثل هذه الخطوط البورجوازية الصغيرة الفاسدة.

د ـــ جناح الاندماج (في السلطة) : لقد كان لظروف النشأة في الظل والاستثنائية التي تربى عليها جيش التحرير، مفعول حاسم في تسريب العديد من العناصر ذات المصدر الاجتماعي الاقطاعي أو البورجوازي. وبالاضافة الى التأثيرات السلبية التي لابد سيكون جيش التحرير قد عانى منها نتيجة هذا التسرب، خاصة وأن مثل هذه العناصر كانت مؤهلة أكثر من غيرها لتسنم مناصب القيادة والتي لم يتح من الزمن لجيش التحرير ما يمكنه خلال الممارسة الثورية واليومية للفظها او تغيير مواقعها داخله أو تحويلها ذاتيا. وحين المؤامرة، لم يكن من المنتظر من مثل هذه العناصر، أو الجزء الأكبر منها على الاصح، أن تقف الى جانب الشعب في محنته الطارئة، لقد كان أقصى ما طمحت وتطمح له هذه العناصر خلال تحركها السياسي ـــ العسكري رفع الحيف أو بعض الحيف، الذي فرضه الوضع الاستعماري على تطلعاتها، أما وقد تغيرت الظروف الى الحد الذي سيسمح لها فيها بأخذ مكاسب أو مناصب، فليس ما يبرر اذن ـــ في منطقها ـــ استمرار ما أصبح يشكل لديها «فوضى» لا معنى لها ولا مسوغ، فعلى الجميع أن يهدأ وعلى الدنيا أن تستقر، ما دامت هي قد تمكنت من اقتعاد مقاعد من حجمها واحيانا اكبر، فلم الخصام إذن ؟

ان عقدة المشكل بالنسبة للبورجوازية الصغيرة هي أنها لم تكن ترى في المشاكل المختلفة وجهها السياسي والاجتماعي بقدر ما كانت تقف عند الوجه التقني فلا تتعداه، ولهذا ظلت رؤيتها للامور أسيرة النظرة الجزئية التي تعجز عن رؤية العلل العميقة للاشياء والظواهر، وفشل هذه الطبقة من امتلاك رؤية علمية للواقع هو انعكاس لفشلها كطبقة ضمن المجتمع في العثور على مواقع اقدام ثابتة تخرج بها من دوامة التذبذب وعدم الاستقرار وهي صفة ملازمة لها ولا حيلة لها في التحرر منها في ظل الشروط الاقتصادية ـــ الاجتماعية لهذه الطبقة والتي تتميز بعدم الاستقرار، اذ ليس لها مصالح ثابتة في المجتمع يمكنها أن ترجع اليها في بناء مواقف ثابتة، فمصلحتها ليست مستقلة، وانما مرتبطة باحدى الطبقات الاخرى، وهذه الاخيرة اما ان تكون بورجوازية أو اقطاعية او بروليتاريا، ولكن كيف تستطيع أن تحدد بأن مصلحتها توجد هنا أو هناك؟ بمؤشر بسيط هو مدى رجحان كفة الصراع بينهما لصالح هذه الطبقة او تلك، وما دام ميزان القوى في مد وجزر قبل أن يحسم نهائيا لصالح الشعب (العمال أساسا) فان

البورجوازية الصغيرة، تتأرجح بعدد تأرجحات ميزان القوى بين الطبقتين الراسختي الاقدام والمصالح. وهذا هو المصدر الاساسي لكل المواقف المتذبذبة لهذه الطبقة، ولكن مصيبتها هي انها مالكة خبرة ولا تني تبحث لها عن منفذ لتصريفها، ولا يهدأ لها بال الا اذا أمنت هذا المنفذ، انها كالبقرة الحلوب التي حالما يمتلىء ضرعها لبنا تستغرقها حالة عصبية لا تخلد بعدها الى الراحة الا اذا تخلصت من حمولتها، وهي مستعدة دائما لتقديم خبرتها وخدماتها لمن يريدها، مادامت هي لا تملك وسائل ومجالات تصريفها، وبما ان الطبقة القادرة على شراء هذه الخبرة هي تلك التي بيدها السلطة، فالبورجوازية الصغرى مستعدة لتقديمها إياها بدون شروط حتى ولو كانت ستستخدم في اتجاه مضاد للشعب. وقد عبرت البورجوازية الصغرى عن مدى استخفافها بمكاسب الجماهير في عدة مناسبات فهي التي عملت على تصفية بعض فصائل المقاومة، وتحالفت مع السلطة لضرب جيش التحرير، وبلغ ضيق الافق بقادتها حداً لم يخطر ببالهم انهم لن يسلموا يوما من أن ترتد ضدهم السلطة نفسها التي تفانوا في تدعيمها، وان الحكم سيقلب لهم ظهر المجن، جاحداً خدماتهم الثمينة له حالما يرتب أوضاعه ويقوي ادوات سلطته.

وليس اسلوب الحوار والتعاون هو كل ما تملك هذه البورجوازية، فهي حين تفشل هذا الطريق تختار طريق الاستيلاء على السلطة، وهي لا تلجأ اليه الا اذا سد طريق الحوار في وجهها، وتظهر مهارة فائقة في المزاوجة في آن واحد بين الاسلوبين: الحوار والتحضير للعنف، مثلما تبدى مقدرة فائقة كذلك في تقسيم المهام بين اجنحتها، وحالما تظلم الآفاق في وجه الاتجاه الاول، ويعد ذلك بمثابة ضوء أخضر للجناح الثاني ليضرب ضربته، على اساس ان الاستيلاء على السلطة، سيفتح الباب على مصراعيه أمام تكنوقرا طيها، ليوظفوا خبرتهم مستفيدين من أجهزة الدولة في تنفيذ في مشاريعهم وخططهم بكل حرية، ويلعب جهاز الدولة دوراً في تشكيل تصورات البورجوازية الصغيرة، فهي لا تفكر أو تخطط الا من خلاله، وهو يتدخل دائما لطبع مشاريعها بميسمه، مما يثبت بشكل قطعي نظرتها التقنية. ونظراً لما لهذا الجهاز من تأثير على فكرها التقنوي فهي لا تستطيع ان توحد الامة خارجه، وبذلك ظلت بممارساتها السياسية المتناقضة بعيدة عن تحقيق ذلك المطلب وعن تجسيده كخط عام.

لقد جاء امتحان 55 /56 ليضع البورجوازية الصغيرة على المحك، غير انها لم تر في المشكل سوى وجهة التقني. لقد انبرى الاستاذ بوعبيد مثلا ينثر كل ما في جعبته من خبرة لفبركة الحلول الاقتصادية والنقدية لمشكل سياسي في عمقه هو: لمن تؤول السلطة : للاستعمار الجديد ام للقوى الوطنية الديمقراطية؟ لم تعجز البورجوازية الصغيرة عن تجسيد خط الجماهير فقط، بل الادهى انها عجزت حتى عن رؤية هذا الخط وهو يشق طريقه بقيادة جيش التحرير في الجنوب، واذا كانت هذه الطبقة قد لعبت دوراً سلبيا على حركة الجماهير، فان هذه الاخيرة على العكس من ذلك كان لها الفضل، بنضالاتها في البادية في التعجيل

بانطلاق صوت البورجوازية الصغرى من محبسه، وبروزه كخط تنظيمي وسياسي مستقل عن هيمنة القيادة البورجوازية.

ان الخلاصة الاساسية التي تقدمها تجربة البورجوازية الصغيرة في المغرب، والتي يجب التأكيد عليها باستمرار، هي ان هذه الطبقة في سعيها الدائم لاحتلال مركز اجتماعي وسياسي أحسن، تنتهي حين تكون معزولة عن قيادة البروليتاريا، الى خدمة الطبقات التي فوقها بما فيها الامبريالية والاقطاع... ولا تطرح طبيعة النظام الذي ستقدم اليه خدماتها الا اذا هي فشلت في ايجاد لغة حوار يضمن لها تحقيق بعض من مصالحها، حين ذاك فقط تفكر بضرورة تغييره عنفيا.

وان الملاحظة الاساسية التي يمكن تسجيلها من هذا العرض السريع لاوضاع ومواقف مختلف القوى... هي أن مصالحها في البادية بقدر ما كانت متشابكة ومتداخلة، بقدر ما كانت متعارضة كذلك، واذا كانت (1959) هي محصلة التقاء وتصادم مجموع هذه الارادات بالبادية في الوجه الذي يتصل منها بحل امتداد جيش التحرير بالجنوب في عهد حكومة عبد الله ابراهيم، التي خرج منها التحالف اليميني الحاكم أكثر قوة بالنسبة للاطراف الاخرى، فلأن هذا الاخير (الحكم) عرف ـــ نتيجة قوته الموضوعية ـــ كيف يجمع خيوط هذه العملية التاريخية بين يديه، ويتعهدها الى ان تنتهي تلك النهاية.

حركة الريف

كانت أوسع وأقوى الحركات الجماهيرية في البادية، عمت قسما منها في السنوات الاولى التي اعقبت (56)، اعلنت فيها الجماهير الريفية العصيان، ولم تجد النداءات، التي لم تعتبر سوى مناورات لتبرئة الذمة مسبقا من الجريمة القابلة، آذاناً صاغية، بل لم تزد الانتفاضة الا تأججا إن عدم الاستجابة هذا للنداءات كاف وحده للدلالة على مستوى الوعي والتصميم وعدم الانخداع، وأصبح استمرارها يشكل تهديدا مباشرا على بناء سلطة الدولة نفسها، حينئذ صدرت الأوامر العليا بقمع الحركة بعد تمهيد السبيل لذلك بعقد تحالفات جديدة هذه المرة مع جناح من البورجوازية الصغرى، هذه القوى الاجتماعية التي ستتكفل عندئذ باضفاء «المشروعية» على هذا القمع بتواجدها الى جانبه موضوعيا وعمليا، وبالرغم من الغموض الذي كان يحيط بالظروف التي رافقت الانتفاضة وبالاهداف، كذلك، التي قامت من اجل تحقيقها.. فإن رؤية ذلك التحرك ضمن دائرة الصراع الطبقي هو الكفيل وحده بتحقيق تصور صحيح للبواعث العميقة لذلك التحرك. لقد شكلت معارك (جيش التحرير) ونضالات جماهير البادية السمة البارزة التي طبعت تلك الفترة قبل أن تنهزم في المعركة امام هجمة لتحالف الرجعي الاستعماري الجديد والذي لم يتورع عن استخدام أساليب دنيئة في سبيل تثبيت سلطته ابرزها : اسلوب التحرش بالتململات الشعبية واستثارتها من أجل اظهار نفسها

قبل الأوان للاجهاز عليها، وهذا ما حدث بالضبط بالنسبة لجماهير منطقة الريف التي آستطاعت السلطة لا أن تحرف توجيهها وتؤثر عليها فحسب بل وأن تؤمن قيادة رجعية لها، وهكذا هبت الجماهير في اطار توجيه ولخدمة اهداف منافية لاهدافها ومطامحها / ولكن ما هي بواعث ذلك التحفز والاستعداد للنضال من طرف جماهير الريف ؟ هناك أسباب موضوعيه ناجمة عن :

1 ـــ تدهور الوضع المعيشي للمنطقة لدرجة خطيرة، ولم تتخذ من الاجراءات الكفيلة بتأمين حياة السكان الا القليل جدا.

2 ـــ احساس الجماهير بأن شيئا لم يتبدل من أحوالها بالرغم من مجيء الاستقلال، وليس استمرار وجود الادارة بنفس الوجه القمعي الكريه، وجباية الضرائب رغم الاوضاع المتردية للسكان، وطغيان لغة القمع على أية لغة أخرى.. الا مؤشرات عميقة الدلالة.

3 ـــ اتساع التذمر وامتداده حتى الى قسم من رجال السلطة الذين انضموا الى الانتفاضة، بفعل تعارض مصالحهم مع الطابع المركزي للسلطة الجديدة.

كانت تلك بعض الاسباب التي جعلت من البادية قوة ثورية قادرة على رفد الحركة الجماهيرية بزخم لا ينضب، لكن الضعف الذاتي للحركة المتجلى في انعدام التأطير والتوجيه الصحيحين قد حال دون تجذرها واكتسابها مواقع متقدمة، مما يسر مهمة ضربها، وقد استهدفت السلطة من وراء هذه العملية استثمار ما أتاحته لها كمناسبة :

أ ـــ استعراض القوة بل واستعمالها أيضا بهدف تأديب الجماهير. لقد كان في حاجة الى مثل هذه الاساليب لإفهام (الناس) على ان الاستقلال الذي كانوا يتغنون بمجيئه ليس استقلالهم، وأن الاوضاع، وان تغيرت من حيث الشكل، فان المضمون باق على حاله، وليس عليهم الا الرضوخ للامر الواقع.

ب ـــ لم يَنس المخزن وهو منهمك في حل تناقضه الاساسي مع جماهير الريف تناقضه مع البورجوازية التي كانت تنافسه على السلطة على الرغم من ان المرحلة تميزت بالتحالف بين الطبقتين، لهذا عمد الى بث شعارات معادية «للحزب» عن طريق عملائه في قيادة الحركة ولقد استطاعت هذه الاثارة ان تنجح، فقد هجمت الجماهير الثائرة على مكاتب «الحزب» بالمنطقة، وأتلفتها محطمة بذلك كل المكاسب التي حققها «حزب الاستقلال» هناك، لقد صُور للجماهير أن أصل البلاء هو الحزب، الذي اتهم بطموح اكبر منه : الاستحواذ على السلطة والاستئثار بها وحده.. (؟!) ساقت ضالة وراء دعاية قيادتها الرجعية، وبذلك استطاع المخزن تحريف الصراع مع الجماهير نحو مسارب وهمية، وخلق وتغذية التناقضات في صفوفها بغية الأبقاء عليها أسيرة هذه التناقضات الشيء الذي يحقق له شرط سيادته على الجميع والبقاء فوق الصراعات.

ت ــ لقد كان من جملة الاهداف من وراء إثارة «حركة الريف» تجريد الجماهير من السلاح بعد ان ظل امتلاك الجماهير للسلاح كابوسا يجثم على صدر المخزن، ولم يكن تجريد الجماهير من السلاح بالامر اليسير وهي التي تدرك أن نزع سلاحها من يدها هو خطوة على طريق الاجهاز على مكاسبها الاخرى وانتزاعها منها، ولذلك فالسلاح هو أداتها في الدفاع عن تلك المكاسب، وهذا هو السر في فشل النداءات اليها بتسليم السلاح، حيث ردت عليها بالرفض، حينئذ صدر انذار يهدد كل من ضبط في حوزته سلاح بتقديمه امام محاكم عسكرية. لقد شكل تسليح الجماهير مسألة مصير بالنسبة للمخزن، ولذلك أصر بعناد على تصفية هذا المكسب الشعبي بأي ثمن، وفعلا نجحت الهجمة التي استهدفته بعد صراع مرير دام زمنا طويلا عبرت فيه الجماهير عن مدى الاهمية القصوى التي توليها لسلاحها وعن المصير البائس الذي ينتظرها بضياعه. ان الجماهير في اصرارها على التسلح كانت في الحقيقة تستلهم ماضيها القريب منه والبعيد، فقد انتزعه منها الاستعمار عند دخوله واستطاعت استرداده، وانتزع منها مجددا من طرف سلطة الاستقلال، لكنها كانت تتصدى باستمرار لكل محاولات تجريدها منه ولم تتهاون في الدفاع عنه، وجسدت بذلك مدى التلاحم الصميمي الذي يربط وجودها نفسه بوجود السلاح بيدها.

ث ــ لقد كان من جملة ضحايا الحملة على «الريف» عناصر من قادة جيش التحرير كانوا قد قبلوا بصفة حل «جيش التحرير» بل وأسندت اليها مناصب ادارية حساسة ثم فصلت من هذه المناصب و وجهت اليها تهم تدينها بالرغم من ميولها اليمينية، وقبولها للوضع الجديد للاستعمار في البلاد، واعلان ولائها له متخلية بذلك عن الفضائل التي واصلت النضال، من اجل انتزاع استقلال حقيقي وغير مزيف، ومع ذلك نجد المخزن لم يتردد في انزال عقابه بهذه الجماعة، فما هي الضرورة التي تبرر مثل هذا العقاب ؟

ينبغي الاشارة أولا الى ان هذه الجماعة التي استهدفها غضب المخزن، لم تكن دخيلة على المسرح السياسي الوطني، بل على العكس تتمتع، كما سبقت الاشارة، بماض نضالي مشرق، وقد تسلمت رتبا عالية في السلطة، وبالرغم من تخاذلها فانها ظلت بدون شك تتمتع برصيد شعبي يؤمنه لها ذلك الماضي، الشيء الذي يحتفظ لها بتأثير على قسم من الجماهير يؤهلها للدخول في ممارسة لعبة القوة هي الاخرى، ولكن لماذا لم يبادر المخزن الى احتواء هذه القوة عن طريق احتواء قادتها الذين ابدوا استعدادا لذلك ؟

الواقع أن المخزن لا يمكن ان يتردد لمثل هذا الاحتواء لو أن القوة التي يمثلها هؤلاء كانت مضمونة بالقدر الذي يفضي بها عمليا الى تجاوز هذه القيادة، وهذا ما كان يخشاه المخزن خصوصا وأن الشرط الثوري كان ناضجا لاجتذاب الجماهير الى ساحة المعركة بفضل الدور الطليعي لجيش التحرير في تأطير وقيادة المعركة، لقد احتاج المخزن لضرب هذه الجماعة بالرغم

من أنه لم تكن لهم سوى طموحات يسعون الى تحقيقها في ظل الوضع الجديد للاستعمار لا خارجه، وقد عمد من أجل ذلك الى توسيخ سمعتهم بهدف تصفيتهم سياسيا، وهكذا تؤكد السلطة من جديد في هذه العملية وفاءها لقيمها المخزنية اتجاه الجماهير التي لا يقبل منها غير علاقة التبعية والولاء المطلقين.

ج ــ كان المخزن يعرف أن الشروط كلها مهيأة لانتفاضة، لذلك بادر باستثارة الجماهير ليتمكن من ضربها بها قبل أن تستكمل شروط نضجها.

ويبقى أن نضع سؤالا أخيرا، وهو : هل نجحت خطة المخزن من وراء اثارة منطقة الريف ؟ يمكن القول : ان بعض الاهداف قد نجحت فعلا مثل تأليب الشعب على (حزب الاستقلال) وتحويل انظارها عن العدو الحقيقي في تلك المرحلة، وتحقيق الهدف الثاني وهو القمع الذي مورس بوحشية والذي اعطاه كذلك فرصة لاظهار قوته واستعمالها ضد الانتفاضة لتكون عبرة للاخرين، ولم ينجح تماما في نزع السلاح حيث بقيت بعض مظاهر حيازته مشاهدة حتى مطلع الستينيات وان كانت الحملة التي خاضها في هذا الصدد تعتبر مقدمة في طريق تصفية هذا المكسب الشعبي، أما ما لم تكن تتوقعه الخطة، والذي يشكل فشلا ذريعا للفكر الرجعي الذي وراءها فهو أن الجماهير في استجابتها لنداء الانتفاضة، قد اندفعت في تيار عارم مفجرة كل الحدود التي رسمها واضعو الخطط، وادخلت فيهم الرعب فلم يجدوا أمامهم غير الاستنجاد بالقوة (الجيش) لايقاف خطر المد الشعبي الجارف الذي اصبح يهدد وجودهم في الصميم مما يثبت الطابع المغامر لاي خطوة من طرف المخزن تتوخى تحريك الجماهير حتى من أجل اهداف قد تكون، فبالاحرى اذا كانت رجعية، لقد اثبتت الجماهير في انتفاضة الريف انها النقيض التاريخي ــ النضالي للرجعية ولاهدافها، حتى وهي تناضل، بدون وعي منها، في اطار تلك الاهداف والخطط الفاسدة التي وضعت أصلا للايقاع بها.

وبضرب حركة الريف انطفأت آخر نقطة مضيئة للنضال الوطني الذي لم تكن الحركة سوى امتداد طبيعي له، استهدف من وراء ضربها تصفية آخر بقايا جيش التحرير في المنطقة.

ماذا كان موقف البورجوازية من حركة الريف ؟ اعتبرتها مؤامرة من طرف الاستعمار الاسباني كان يهدف من وراء اثارتها تغطية رجوعه لاحتلال المنطقة من جديد، ولكنها رفضت الموقف المخزني الذي يقول باستخدام العنف لاخمادها، ان هذا الموقف للبورجوازية الوسطى يسمح باستخلاص الخلاصتين التاليتين :

أ ــ ان الحادثة بدل ان تشكل مناسبة لحزب الاستقلال يقوم فيها بالنقد الذاتي واستخلاص دروس التجربة والاعتراف بخطئها الاستراتيجي في التخلي عن الشعب والانحياز الى جهة السلطة، أرجعت اسباب الحركة الى قوة وهمية هي رغبة الاستعمار الاسباني في الرجوع، وفي هذا تحريف للجماهير عن الاسباب الحقيقية للانتفاضة، وتزييف لمطامحها في الانعتاق من الهيمنة المخزنية.

ب ــ في رفضها لقمع الحركة عبرت عن وعي نسبي لمصلحتها في تلك المرحلة على الاقل وعدم قبولها بان تكون اداة في يد المخزن يستخدمها لحقيق اهدافه.

اما البورجوازية الصغرى ... فلم ترفي الحادثة الا مناسبة تقدم فيها شهادة حسن السلوك الى السلطة، وتعبر عن موقف تنكري اتجاه الجماهير، وعن مدى استخفافها بمكاسبها والاستعداد لتصفية هذه المكاسب، ولم تجد السلطة من يشاركها في تنفيذ مخططها التصفوي أفضل منها حيث سارعت الى نجدته في ظرف دقيق من تاريخها وساعدت على تلبيتها على حساب السلطة الشعبية.

وأما المخزن : فكان اكثر دهاء وقدرة على التناور في مواجهة الحركة، اكتشف أنه لا يقوى على قمعها بمفرده، وفوق هذا فهو غير راغب في تعرية طبيعته القمعية منذ ذلك الوقت المبكر الذي سيخسر فيه دفعة واحدة كل الهالة الوطنية التي اكتسبها لدى الشعب، واذن فهو يحتاج الى حليف يوجه القمع باسمه ويستخدمه قناعا يختفي وراءه، وبعد أن اشبع عطشه الى القمع، وجاء دور التبرير، تشكلت (لجنة أنجاي) وعلى العكس من الموقف اللامسؤول للبورجوازية التي ردت أسباب الحادثة الى رغبة الاستعمار في الرجوع، فان اللجنة اوردت على الاقل في تقريرها (بهدف التضليل) بعض المشاكل التي تعاني منها الجماهير، الا انها قدمت حلولا مزيفة لهذه المشاكل تخدم بشكل أساسي التناقض مع البورجوازية حيث حاولت ان تصور للمواطنين أن المشكل الاداري ناتج عن رغبة بعض الاداريين استعمال الادارة لاغراض «حزب» تتنافى مع وظيفتها كأداة لحل المشاكل التي تعاني منها هي، ودعا هؤلاء الاداريين الى ضرورة التحلل من انتماءاتهم الحزبية حتى يتسنى لهم خدمة «المصالح العامة» لا اهداف أحزابهم الضيقة. لقد عرف المخزن كيف يحقق أهدافه من اثارة الحركة وقمعها ويخرج من المعركة وموقفه اكثر قوة وتماسكا، وكيف يضع البورجوازية بجناحيها في قفص الاتهام وجها لوجه أمام الجماهير.

لقد منحت عفوية الحركة والفوضى التي كانت تسودها وانعدام التوحيد.. منحت المخزن امكانية تحريف توجيهها وتزييف شعاراتها، ولكن لماذا تميز موقف الجماهير بتلك القسوة اتجاه «حزب الاستقلال» حيث رددت خلال الانتفاضة شعارات معادية للحزب كما ناقضت بعض شعاراته محتفظة بشكلها بمحتوى معادي له، ولم تقف الجماهير عند حدود التشهير السياسي فقط بل تجاوزته الى الهجوم على مراكزه بالمنطقة واتلاف محتوياتها، فما هي دلالة هذا النقد القاسي الذي زاوجت فيه الجماهير بين النقد الشفوي والنقد بالممارسة ؟ وما هي اخطاء البورجوازية التي استحقت عليها كل هذا التأديب ؟

إن النظرة السطحية توحي بخطأ الجماهير في هذا الموقف، أو على الاقل أنها انساقت وراء توجيه رجعي في تعميق التناقض بينها والبورجوازية. غير أن النظرة المتأملة والتي تربط الحدث بالموقف التنكري للبورجوازية وارتمائها في أحضان التحالف الاستعماري الرجعي وأزوارها عن

الجماهير... تستطيع اكتشاف مدى صواب الموقف الشعبي منها من حيث المبدأ (إن لم يكن من حيث الصيغة) لقد كانت الجماهير تعلق آمالا كبيرة على وقوف البورجوازية إلى صفها في صراعها ضد التحالف المنوه به، لكنها كانت قد انساقت وراء بريق مصلحة كاذبة لوح لها به الاستعمار وولت ظهرها للشعب وتنكر لمواقفها الوطنية السابقة، بل الادهى أنها تحالفت معه فما هو العقاب الذي يستحقه موقف كهذا ؟ أن الجماهير التي وجدت نفسها عزلاء أمام أعدائها الطبقيين بعد أن تخلت عنها حليفتها في منتصف الطريق قد كانت منصفة ومحقة في هذا التأديب، بحيث لم يخل خوضها للنضال ضد الوضع الجديد من أن توجه «عنايتها» كذلك إلى البورجوازية، مذكرة إياها بشناعة مواقفها.

تلخيص وخلاصـــات

1 ــ شكلت البادية المغربية خلال كل تاريخها القديم والحديث قطب الرمى في الصراع الاجتماعي. ولم يكن ذلك ناتجاً عن ظروف طارئة بل عن شروط تاريخية (اقتصادية ــ اجتماعية وسياسية) متحكمة، وما تزال، في مجمل أوضاعها.

. فهي في الماضي كما هي الحال اليوم، تعتبر من أهم مصادر الانتاج في المجتمع، وموطن أغلبية القوى العاملة، لذا فقد كانت محط استغلال الإقطاع القديم بأنواعه ومحط قمعه كذلك، ولعبت جماهيرها من ناحية أخرى المنبع الاساس للتقدم الاجتماعي والثورة.

ولم يتغير الامر في شروط مرحلة الاستعمار، تصاعد الاستغلال بمشاركة المعمرين الفرنسيين في انتزاع أجود أراضي الفلاحين واستقوى استثمار عمل العمال الزراعيين في ضيعات المعمرين، وازداد القهر السياسي، وكانت أمثولة تاريخية دالة جداً، حين أضطر الاستعمار، من أجل مواجهة المد المتعاظم لقوى الثورة التي واجهه بها الفلاحون، للتحالف مع الاقطاع حتى يستطيع التماسك مام شدة عنفها، وفي سبيل هذا التحالف حافظت البادية على النمطين (القديم الاقطاعي، والجديد الرأسمالي الاستعماري) من الاستغلال، وتكرست البنيات والعلاقات الاجتماعية القديمة متساكنة مع النمط الجديد وأدى الفلاحون الثمن كله.

في مثل هذه الاوضاع لم يكن منتظراً من الفلاحين سوى تصعيد التحرك لمواجهة التحديات الجديدة المفروضة على شروط حياتهم فلم يترددوا. ولم تكن 1955 ــ 1956 حتى أعادت الجماهير الفلاحية، ومعها وفي طليعتها هذه المرة الطبقة العاملة وعموم سكان المدن، الكرة من جديد مستعيدة أمجادها الرائعة في الريف والصحراء والاطلس، وهكذا انحلت، أو كادت، نتيجة ذلك سلطة الاقطاع والاستعمار، وأخذت مكانها بوادر سلطة جديدة شعبية حقا وثورية جوهريا في شروطها التاريخية.

ومن جديد أرغمت حركة الجماهير أطراف الاستغلال القديمة، ومعها هذه المرة البرجوازية المحلية، فتنازلت، ولكن ليس خارجها، أي للجماهير نفسها، بل فيما بينها أساساً. فعقدت

صفقة تحالف لمواجهة الوضع الثوري الجديد، وكانت مؤامرة 1956 الاستعمارية. وبدأت معها مرحلة جديدة من المواجهة.

لم يستطع جيش التحرير، باعتباره القائد، نتيجة لحداثة نشأته وتضارب اتجاهات قيادته، وقوة اليمين داخله، استيعاب طبيعة الطرف الجديد وما يطرحه من مهمات جديدة وأساليب عمل وتاكتيكات مخالفة لما قام عليه أصلا من أهداف باهتة وطموحات غامضة. فكانت ضربة 1956 الحاذقة عملية نقلت كل خصائص معسكر العدو إلى أوساط الجماهير فعم الارتباك والفوضى والانقسامات وتعدد المواقف وتناقضها، في حين استرجع التحالف الرجعي تماسك خططه ودقة تحديد أهدافه وضبط صفوفه وخضوعه عموماً لتوجيه قيادة واحدة.

إن من يغرق في التاكتيك من دون بعد أو أبعاد استراتيجية ويغلب الوجه التقني على حزب يجمع و يركز خيوط القيادة والتوجيه....يكون هذا مصيره، حين يتغير الموقف من حوله وتتبدل مواقع عدوه، أو يقنع عليه وجهه...فلا يعود قادراً أمام فقر أدوات التحليل لديه على التمييز بين العدو والصديق بين الحليف والخصم.

ومع ذلك فإن عنصر الزمن قد لعب دوراً كبيراً — إلى جانب الشروط التاريخية الشاذة نسبيا لنشأة جيش التحرير محضونا في الظل من أطراف عديدة — في هذه النتيجة غير المتناسبة مع زخم الحركة وتراثها التاريخي العظيم. هذه الواقعة التي فهمتها جيدا أطراف التحالف الرجعي وأسرعت في حل خلافاتها تحت ضغطها. فلو أتيح للجيش الوقت، ولو نسبيا، لحتّم عليه تطور الصراع تجاوز الكثير من الثغرات والنواقص التي عثرته وضبّبت رؤيته / وعلى ذلك فقد أدت الحركة أدواراً إيجابية في صيرورة الصراع الطبقي، فأسرعت بتطور وبروز العديد من الظواهر والمواقف، وكشفت بسرعة الضوء عدة أقنعة (انتهازات وخيانات) وجذرت من مواقف برجوازية المدن الصغيرة، ودعمت تحررها السريع من قيادة البرجوازية واستقلالها عنها.

أما موقفها النقدي ...اتجاه حزب البرجوازية الذي تخلى عنها — خصوصا خلال انتفاضة منطقة الريف — فقد كان حدثا رائعاً وسبقاً تاريخياً مشهوداً في التعرية والكشف والتجاوز.

ثانيا : أما الطبقة العاملة فلم يكن من المنتظر لطاقتها النضالية، أمام فقدانها تنظيمها السياسي الخاص القائد والموجه لخططها وتحركاتها، أن تتصرف خارج مصارف الانتهاز والنظرة التاكتيكية المحدودة والضيقة. وهذا ما هيأته لها تماما وبأمانة قيادتها النقابية البورجوازية، وهكذا خسرت الطبقة العاملة، في مقابل مكاسب مهمة حقا على مستوى مصالحها المباشرة، مصالحها السياسية البعيدة؛ بتخليها عن حليفها القوي والامين والجدير بكل ثقة : جماهير الفلاحين في البادية التي بقيت تتخبط وحدها متعثرة الخطى حين فقدت سند المدينة لها وفقدت أكثر من ذلك : الطبقة العاملة (عقلها الموجه ورمحها الحادة). وأمست كما يقول المثل

«لاحمار لا سبعة فرانك» : خسارة من واجهتين تلك هي النتيجة الحتمية، والدرس التاريخي المستخلص من كل انفصال سياسي وتنظيمي بين هاتين الطبقتين التوأمتين؛ ذلك أن «السبع فرنكات» نفسها التي كنسبتها الطبقة العاملة خلال نفس الفترة قد تعرضت، كما نعرف، للسرقة من جديد، بمجرد ما تمت سرقة «الحمار» نهائيا.

ثالثا : أما البورجوازية الصغرى في المدن، فقد وضح أي طاقة فعالة تخسرها حركة الشعب بخسارتها لهذا الطبقة، وظهر أكثر من ذلك مدى ما تصل إليه مواقف وممارسات هذه الطبقة من انتهاز مخز بل وخيانات حين تفقد مربيها وضابط تحركها الرشيد أي : حزب الطبقة العاملة.

إن البورجوازية الصغيرة في المدن قبلت بكل بساطة الوضع الاستعماري الجديد مبدئياً، وقررت الاستفادة من شروطه، وقدّست عموما، العمل في الشرعية والتخلّي عن غيره، وصممت على ألا يكون لها موقف واحد ومحدد إلا حين يتصل الامر بتقديم الخدمة — بالمجان أحيانا — للتحالف الاستعماري الجديد. ولم تكن خصائلها البارزة مؤهلة لوعي الوجه السياسي من المشكل، فاستعارت من خردة الاستعمار الجديد التي أعاد صقلها جيداً ليأخذ بريقها المزيف لب أمثالها من المتهافتين على كل سلعة براقة، ايديولوجية «الحلول التقنية المعجزة» لحل كل المشاكل. ولو أخذت هذه المشاكل صيغة تناحر طبقات، ولم تكن غير الطبقة السائدة، قوة تملك إمكانية شراء بضاعة التقنية «المستهلكة» هذه، وقد وظفتها بالحذافير لقمع الحركة في آخر التحليل، أن هذا في العمق هو نفس موقف العناصر التي رفضت العمل في الشرعية، وحاولت عن طريق العمل المعزول (بعد أخطاء مشينة سابقة اتجاه الحركة في البادية) أن تصحح ما أفسدته بفساد لا يقل في الجوهر عن السابق. وقد استمرت أنجع عناصرها وهي قليلة، في الامتداد الجديد للحركة (جيش التحرير) في الصحراء. قبل أن ينتهي هو الآخر إلى الحائط متخبطا في نفس التناقضات — من حيث النوع — التي انهت وجود جيش التحرير في عموم بادية المغرب.

رابعا : أما البورجوازية : فقد برهنت على أنها الخادم المطيع الذي لا يتردد في تنفيذ جميع طلبات «الطبقة السائدة» حين يتعلق الامر بمواجهة الجماهير. إنها بورجوازية أكلتها تناقضاتها الداخلية، ولم تكن محتاجة حتى إلى اثارة الحكم ومناوراته لتضرب بعضها ببعض. فتنجز هذه المهمة تلقائيا وبكامل الارتياح، مادام الأسياد راضين. لقد كان همها، الذي أخذ عقلها (إن كان لها عقل) هو السهر الدؤوب على نسف ذاتها، باذلة كل جهد لكي تبنى بخبرة أطرها جهاز السلطة القمعي بدون أدنى شرط أو تحفظ ما دام الهدف يتعلق بلجم جماهير الفلاحين في البادية. التي خرجت عن الطاعة، وعن كل طاعة ومنها طاعة حزبها، لقد صنعت بيدها ومن جسدها العصا التي سترجع عليها هي نفسها من أجل رهان خاسر وهي وفاسد منذ البدء بدون حتى كلمة شكر أو تعبير عن حسن النية من طرف خصمها.

والادهى وهمها بإمكانية اكتساب شعبية — هي أحوج إليها في خلافاتها آنذاك مع السلطة — عن طريق استغلال نفس الجهاز التي يعاني منه الفلاحون الامرين، فلم يكن المسؤول الحزبي سوى نفس المسؤول الاداري فيها. وهل من المستطاع أن يحل منطق العجز الذاتي هذا (أي قلة الاطر لديها) تناقض هدفين في عمل واحد : بناء جهاز السلطة؛ وتنظيم الجماهير في ظل شعارات وطنية مزيفة ومن طرف نفس الشخص (؟!) هذا التناقض الذي عانت منه أطرها المسؤولة في البادية حل موضوعيا بتحويل «موضوعي» للاطار من المصالح التي كانت تربطه بحزبه إلى مصالحه المكتسبة حديثا مع جهاز السلطة المخزني، فاتكأ على اتجاه القمع كما كان منتظرا له تماما أن يكون أما أوهام الذين يريدون أن يحتفظوا بكرسيين في آن معا، فقد تمزقت هباءاً بينهما كاشفة عن زيفها الاصلي.

ثالثا : أما البورجوازية الصغرى في المدن، فقد وضح أي طاقة فعالة تخسرها حركة الشعب بخسارتها لهذا الطبقة، وظهر أكثر من ذلك مدى ما تصل إليه مواقف وممارسات هذه الطبقة من انتهاز مخز بل وخيانات حين تفقد مربيها وضابط تحركها الرشيد أي : حزب الطبقة العاملة.

إن البورجوازية الصغيرة في المدن قبلت بكل بساطة الوضع الاستعماري الجديد مبدئياً، وقررت الاستفادة من شروطه، وقدّست عموما، العمل في الشرعية والتخلّي عن غيره، وصممت على ألا يكون لها موقف واحد ومحدد إلا حين يتصل الامر بتقديم الخدمة — بالمجان أحيانا — للتحالف الاستعماري الجديد. ولم تكن خصائلها البارزة مؤهلة لوعي الوجه السياسي من المشكل، فاستعارت من خردة الاستعمار الجديد التي أعاد صقلها جيداً ليأخذ بريقها المزيف لب أمثالها من المتهافتين على كل سلعة براقة، ايديولوجية «الحلول التقنية المعجزة» لحل كل المشاكل. ولو أخذت هذه المشاكل صيغة تناحر طبقات، ولم تكن غير الطبقة السائدة، قوة تملك إمكانية شراء بضاعة التقنية «المستهلكة» هذه، وقد وظفتها بالحذافير لقمع الحركة في آخر التحليل، أن هذا في العمق هو نفس موقف العناصر التي رفضت العمل في الشرعية، وحاولت عن طريق العمل المعزول (بعد أخطاء مشينة سابقة اتجاه الحركة في البادية) أن تصحح ما أفسدته بفساد لا يقل في الجوهر عن السابق. وقد استمرت أنجح عناصرها وهي قليلة، في الامتداد الجديد للحركة (جيش التحرير) في الصحراء. قبل أن ينتهي هو الآخر إلى الحائط متخبطا في نفس التناقضات — من حيث النوع — التي انهت وجود جيش التحرير في عموم بادية المغرب.

رابعا : أما البورجوازية : فقد برهنت على أنها الخادم المطيع الذي لا يتردد في تنفيذ جميع طلبات «الطبقة السائدة» حين يتعلق الامر بمواجهة الجماهير. إنها بورجوازية أكلتها تناقضاتها الداخلية، ولم تكن محتاجة حتى إلى اثارة الحكم ومناوراته لتضرب بعضها ببعض. فتنجز هذه المهمة تلقائيا وبكامل الارتياح، مادام الاسياد راضين. لقد كان همها، الذي أخذ عقلها (إن

كان لها عقل) هو السهر الدؤوب على نسف ذاتها، باذلة كل جهد لكي تبنى بخبرة أطرها جهاز السلطة القمعي بدون أدنى شرط أو تحفظ ما دام الهدف يتعلق بلجم جماهير الفلاحين في البادية. التي خرجت عن الطاعة، وعن كل طاعة ومنها طاعة حزبها، لقد صنعت بيدها ومن جسدها العصا التي سترجع عليها هي نفسها من أجل رهان خاسر وهمي وفاسد منذ البدء بدون حتى كلمة شكر أو تعبير عن حسن النية من طرف خصمها.

والادهى وهمها بإمكانية اكتساب شعبية ـ هي أحوج إليها في خلافاتها آنذاك مع السلطة ـ عن طريق استغلال نفس الجهاز التي يعاني منه الفلاحون الامرين، فلم يكن المسؤول الحزبي سوى نفس المسؤول الاداري فيها. وهل من المستطاع أن يحل منطق العجز الذاتي هذا (أي قلة الاطر لديها) مناقض هدفين في عمل واحد : بناء جهاز السلطة، وتنظيم الجماهير في ظل شعارات وطنيه مزيفة ومن طرف نفس الشخص (؟!) هذا التناقض الذي عانت منه أطرها المسؤولة في البادية حل موضوعيا بتحويل «موضوعي» للاطار من المصالح التي كانت تربطه بحزبه إلى مصالحه المكتسبة حديثا مع جهاز السلطة المخزني، فاتكأ على اتجاه القمع كما كان منتظرا له تماما أن يكون أما أوهام الذين يريدون أن يحتفظوا بكرسيين في آن معا، فقد تمزقت هباءاً بينهما كاشفة عن زيفها الاصلي.

وبالنسبة للتقسيم الاداري المنسجم والمتطابق مع التقسيم القبلي والذي وقع نتيجة التحالف الاستعماري ـ المخزني القديم، فقد وقع الحفاظ عليه وتكريسه بمساهمة من البورجوازية، بل إن تنظيم حزبها في البادية قد سار على نفس النسق، وكيف له أن يخرج عن شروط حضانته الاستعمارية الجديدة.

وفي انتفاضة الريف المباركة، اخذت الجماهير نصيبها الذي تستحقه من النقد بالممارسة وكانت لها فرصة للمراجعة والتمحيص تخلت عنها بعناد مصرة على أن السبب وراء الأحداث كامن في (رغبة الاستعمار في الرجوع) ناسية أنها لم تكن الا ضيفاً غير مرغوب فيه أحيان لديه.

ان بلاهة البورجوازية في توهيم نفسها أنها تملك السلطة بوجودها في الحكومة وامثالها من الاجهزة الادارية... الشكلية، هي نفسها قد انعكست على مواقفها في البادية. لقد كان واضحا أن من حسم مشكل السلطة حقا في «المركز» باستيلائه على اجهزتها الحقيقية (الجيش ـ الامن ...) هو من يستطيع حسمها في النهاية لصالحه في البادية.

خامسا : أما الطبقة السائدة ومن ورائها الاستعمار فقد كانت فارس الميدان بلا منازع الا إذا كان (المنازع) من طينة تربي عليها عضلاتها، كانت تستند الى خبرة تاريخ طويل في ممارسة السلطة وما تقتضيه من مقومات الدس والتناور والتآمر وكل ما يمت الى خبث التسلط الطبقي بقرابة الدم والاصل، حلت تناقضاتها الداخلية بدهاء، وعلى النقيض من تبلد

البورجوازية التي تخلت عن قوتها الوحيدة الممكنة في البادية : جماهير الفلاحين (فتخلت عنها الاخيرة بالتبعية)، ارتكز الاقطاع المركزي على الاقطاع الجهوي وعلى المعمرين، ولم يفرط فيهما الا حين الضرورة القصوى، وعرف اكثر من ذلك كيف يلعب بتناقضات البورجوازية بمختلف فصائلها ومستوياتها، بل وكيف يستعملهم لتنفيذ مجموع خططه موهما أياهم بانها خططهم الخاصة، مخفيا، نفسه دائما وراءهم بعيدا عن سخط الشعب وعن غضبه محافظا بذلك على نقاوة مغشوشة وأبوية للجميع محايدة، زائفة.

وفي لقائهم الحميم امام مشكل البادية دل الاقطاع والبورجوازية ومن ورائهما الاستعمار على مدى الوحدة المتينة التي يلتجئون الى الاخذ بها حالما يتمثل الخطر الاكبر — الجماهير — على مجموع مصالح الاستغلال كيفما كان مستواها، ومن اجل تثبيت السلطة، وما احتيج اليه من أجل ذلك من أطر ادارية، وتعارن الاطراف ثلاثتهم دون أن يتمكنوا من تحقيق ذلك الا بعد جهد جهيد وزمن مديد، وبذلك اعطوا برهانا آخر على الضعف العام والعميق الذي يميز كلا الطبقتين رغم دعم الاستعمار، أمام قدرات وطاقات الجماهير على حل مشكل السلطة ومشكل أطرها حينما تكون في وضع ثوري حقا.

سابعا : لقد كان امتداد حركة جيش التحرير التحريرية الى الجنوب، بعد المؤامرة وامتداد واستمرار عملها على ثلاث جبهات : الصحراء وموريطانيا ودعم الجزائر. خطا سديدا تماما ومتوافقا أشد التوافق مع شروط الوضع الجديد الذي شكلته مناورة التحالف الرجعي، لقد كان فرصتها الوحيدة للاستمرار واعادة البناء وتقوية السلطة الشعبية الفتية في شروط لا يستطيع معها الحكم — الا بتحرج بل ومغامرة — مواجهتها علنا ومحاولة تصفيتها، كما صنع في أماكن أخرى، الا أنها سقطت في اخطاء كبيرة لم يكن لها معها — رغم منطلقها السديد — أن تستمر منتصرة على اعدائها المتربصين :

أ — عدم تحديدها المضبوط لاهدافها السياسية وليس العسكرية، فقط، القريبة المدى، وعلى الاخص البعيدة المدى (الغرق في التكتيك).

ب — عدم تنظيم الجماهير في اشكال ممارسات سياسية واقتصادية — ليس عسكرية فقط — تحت شروط برنامج مفصل وخاص بالمنطقة «المحررة» على الاقل.

ت — وعلى العكس من ذلك، اصطنع جيش التحرير علاقة سيئة وغير صحيحة مع جماهير المنطقة، بالاخص في مسألة الدعم المادي، التي كانت تؤخذ حين الضرورة (بعد أن حجبت الحكومة عنهم معوناتها غير المباشرة، في محاولة ناجحة لخنق تحركهم ذي الطابع العسكري الصرف، وضربهم بالجماهير في المنطقة خصوصا) قهراً من طرفها امام الحاجة الحيوية لذلك (الجوع) وافتقاد أطر تنظيمية وعمل سابق معها يضمن الدعم الثابت والدائم والطوعي الواعي.

ث ــ قبولها الانعزال عن جماهير المدن عموما الذي فرضته الحكومة عليها، وضعف محاولاتها لتجاوز ذلك، الا ما كان يجري ــ بشكل دعائي فقط ولكنه هزيل مع ذلك ــ عن طريق (حزب الاستقلال).

ج ــ سقوطها العملي ــ بعد مجهود ماض طويل من الاستقلالية ــ تحت هيمنة (حزب الاستقلال) وبالاخص من شخص المرحوم علال الفاسي واتباعه من جهة، أو أخصامه في الحزب من جهة أخرى.

ح ــ السقوط في نزعة عسكرية مبالغ فيها، واحتقار عملي لمضمون العمل السياسي، والنتيجة الافتقاد الى البرنامج في هذا الصدد.

خ ــ بداية نزعة زعامية ــ بيروقراطية لدى بعض قياداتها، ووقوعها في خلافات ليست من طبيعة سياسية وانما هي خلافات قيادية ذاتية.

د ــ موقف انتهازي من تناقضات الشعب الناتجة عن النزعات «القبلية» وقبولهم نتيجة ذلك الانسياق عموما مع عصبة قبلية او قبائل المنطقة (آيت باعمران) ضد عناصر القبائل النازحة من الشمال (الاطلس ــ الريف...)

ذ ــ تقيدها باغلال الدعم المادي الحكومي غير المباشر، وربما غير المقصود، لفترة لم تكن الاخيرة فيها متضررة من ذلك ان لم تكن مستفيدة كورقة ضغط في المفاوضات، ومن ثم عدم تقديرها المغزى السياسي لذلك الدعم المؤقت، وخطره على المدى القريب والبعيد خصوصا. فخسرت بذلك دعم الشعب عند الاحتياج، وخسرت بالتالي كيانها بالنتيجة حين لم تعرف كيف تستفيد من شروط الوضع المؤقت لتهيىء شروط دعم مادي وسياسي ثابت ومتنام بالاعتماد أساسا على تنظيم الجماهير.

وفي العمق، وعند آخر التحليل، اين يكمن المشكل حقا ؟ أنه في فقدان الجماهير في قمة نهوضها الثوري الى حزب سياسي طليعي معبر عن فكر وخط اكثر أجنحتها طليعية ومقدرة وطول نفس ووضوح خط : الطبقة العاملة في المدن والبوادي.

6 ــ انتفاضة «1958» المدوية في منطقة الريف، كانت التعبير الصارخ والعنيف ضد المؤامرة وضد مفعول نتائجها على حياة ومعيشة الجماهير الكادحة انها من البقايا الثرة لغنى نضالات 55 ــ 1956، ولكنها كانت آخرها قبل أن تنتقل الحركة الى طور، بل أطوار جديدة، وجاءت طليعية المنطقة ومبادرتها لمثل هذا التحرك الشعبي الرائع نتيجة تاريخية ومنطقية لشروط الميز الاقليمي الذي اصطنعه منطق المصلحة الاستعمارية قبلا، والذي تكرس بتثبيت الوضع الجديد لنفس الشرط الاستعماري القديم، وكانت بذلك تسجيلا تاريخيا لواقع عدم الاختلاف النوعي بين المرحلتين، واكثر من ذلك، لوعي الجماهير بحقيقة هذه المهزلة ــ المأساة، التي قدمت لها تعويضا عن كل تضحياتها المجيدة.

ولم تتخدع جماهير المنطقة بالنداءات...، بل رفضت الانصياع الى الخزعبلات التي فقدت بريقها وشرعيتها المضللة، وسارت قدما في طريقها، ووضع بذلك ما كانت تفهمة هي وتقصده خلال مرحلة نضالها السابق من مختلف الشعارات المزجاة لها. إنه الاستقلال الشامل لمجموع الوطن (وحدة الوطن) وتحقيق السيادة الفعلية لها عليه، أما الصيغ الشكلية لتلك الشعارات فلم تكن سوى تكتيك لجمع الشمل بمن فيه بعض من كانت تستهدف تجميد تحالفه مع العدو الرئيسي (الاستعمار).

أما الطبقة السائدة فقد فهمت من ذلك كل شيء، واستخلصت ما يلزم استخلاصه، أو هي تأكدت منه بالاحرى، وحزمت أمرها على الجد، فبعد أن حاولت استعمال البورجوازية تمرير جريمة قمع الانتفاضة، رفضت هذه (ربما لأول وآخر مرة) أن تغسل يدها بدم لن يتحول بين يديها الى ذهب، أما البورجوازية الصغرى فقد تقبلت المشروع ــ المجزرة بطيبة خاطر ما دام يفتح أمامها مجال تنفيذ مخططاتها التقنية ــ المعجزة وييسر لها فرصة استقلالها التنظيمي عن حزب البورجوازية وبناء تنظيمها السياسي الخاص متكئة على دعم الجهاز الاداري وامكانياته «الملغومة».

وكون الاقطاع استطاع التأثير ــ المباشر أو غير المباشر ــ في اثارة الانتفاضة بل وحتى توجيهها، فهذا شيء واضح في توقيتها غير المناسب لانطلاقتها من غير تنسيق مع أقاليم أخرى. وكذا في الطابع العفوي الشامل لها وفي شعاراتها المغشوشة كثيرا، وأكثر من هذا في عناصر قيادتها اليمينية، وفي البلبلة والفوضى وتعدد الشائعات من مختلف الأنواع والتي تخبطت وسط تأثيراتها الضارة بل القاتلة، وتأكد كل ذلك بشكل أقوى حين المواجهة الدموية والوحشية التي تعرضت لها، واتضح ما كانت الرجعية ترغب فيه من هذه الاثارة للشبل قبل استئساده كفرصة لعرض العضلات و «تأديب» «الغوغاء» وتصفية بقايا «أوهامهم» حول الاستقلال الوطني الذي فهموه «خطأ» كاستقلال خاص بهم فقط ما داموا هم وحدهم الذين دفعوا ثمنه من حرياتهم ومعاشهم بل ودمائهم.

وهذه هي بالضبط، كانت اخطاؤها التي قتلتها وهي في المهد.

تعقيـــب واستطـــراد

بين ظروف كتابة هذا المقال، وظروف اليوم، إن بالنسبة للوطن أو بالنسبة لكاتبه، فروق كثيرة، ولو أمكن لصاحبه أن يعيد كتابته في الشروط الحالية، العامة والخاصة، لكان تغير في جانبين ثانويين ولكنهما هامين مع ذلك :

1 ــ لهجته التي راعت مواقف بعض القوى التي كانت يومها متقدمة نسبيا، أما اليوم فقد باعت كل شيء حتى رموزها، وتبدلت هي الاخرى في «لهجتها» اتجاه الشعب، وكان الاحرى بنا ان نغير اتجاهها كذلك، ان (حزب الاستقلال) مثلا الذي كان بالامس البعيد حزبا لكل الشعب ثم حزبا لجزء منه مع زعامة الوطني النبيل «علال الفاسي» انتهى اليوم كي يصبح حزب الاقلية التي كان يحاربها المرحوم بنعت «المعمرين الجدد»، انتهى الى حزب حاكم في : ماي وفي يونيو 81 وبـ «اصلاحات» التعليم... وسبحان مبدل احوال الثمر الى قطط أنيسة.

[وبالمناسبة، فسنصنع جميلا وواجبا اذا عمدت هيئاتنا الوطنية المختلفة وعمد مثقفونا... لانقاذ الزعيمين الوطنيين : بلحسن الوزاني وعلال الفاسي... من الاستثمار السياسي ــ الحزبي (الانتخابي) وارجاعهما الى مكانهما ومكانتهما في التاريخ الوطني ــ الشعبي للامة وضدا على من تنكروا للرسالة وشوهوا التركة]

2 ــ اغلب أطروحات وأفكار المقال غير موثقة في النص، بالرغم من أنها غير ذلك في واعية صاحبه، وفي جميع الاحوال فما يسوغ للمقالة ويعوض عن هذا «العيب» ــ الشكلي هو الآخر ــ هو رهانها التنظيري والمنهجي والتوجيهي. في محاولة لصياغة رؤية وقراءة لتاريخ غير مؤرخ ولمناطق بقيت في الظل بمآسيها وشهدائها، وفي سبيل تأسيس كتابة للتاريخ المغربي الحديث مضادة للكتابة السائدة حتى الآن من طرف المساهمة في مثقفي البورجوازية.

وبعـد ...
فكيف هي الاحوال اليوم ؟

التطور الموضوعي لاحوال العلاقة : مدينة /بادية، انتهى الى نزوح بدوى نحو المدن في صورة تشبه الغزو المنظم، سواء من طرف الشباب الذي دفعته العطالة و «الترانزستور» و «الكار» او جذبته أضواء وملاهي المدينة ومشاغلها التافهة المنبعثة من حاجيات مزيفة (من مهن «مسح الاحذية»... الى القحابة والقوادة..)

أو من طرف أسر دفعتها «القروض الفلاحية» الى بيع ارضها لبيروقراطية طمحت الى تكوين رأسمال كبير، فلم تجد أمام تفاهة ما بين يديها منه، وغباؤها في ميدان الاستثمارات الصناعية والمالية... وكذا ضغط الرأسمال الاجنبي ...الخ سوى التهافت على اراضي الفلاحين الصغار.. في اطار سياسة تقوم الفلاحة (التصديرية أساسا) كاسبقية الاسبقيات. وبذلك تطردهم من اراضيهم وقراهم (وهي تبكي وتشتكي) نحو مدن غير مستعدة لاستقبالهم الا كعاطلين، مكدسين كالحشرات في مدن الصفيح.

هكذا، بدلا من أن «تغزو» المدينة البادية اقتصاديا ــ اجتماعيا وحضاريا لتطويرها وتقديمها... كما كان حال تاريخنا الحضاري القديم او تاريخ البورجوازية الاوربية.. فقد حصل العكس، تبدت المدن المغربية بصورة شائهة بل وهمجية ومنحطة بشكل فظيع، وكالخاتم حول الاصبع، طوقت كثير من المدن باحياء الصفيح،

واستحالت المدن التقليدية (القديمة أو الاهلية كما قد تسمى) الى خراب تتكدس في المنزل الواحد منه (بني أصلا لعائلة كبيرة من 3 أو 4 أسر) 50 خمسين أسرة أحيانا (فاس). ولم تعد المدينة الحقيقية سوى جزر صغيرة متطرفة غالبا (في الضواحي) أنيقة جداً، مضادة جداً، نظيفة جداً.. حتى لا قوت فيها للذباب.. تحرس فيها الكلاب أقلية من «ضيوفها» الثقلاء يضعون رجلا هنا ورجلا هنالك، يحملون الجنسية المغربية حقا اما وطن «هم» الحقيقي وحتى المهم فهو المال ورأسه أنى كان وبالاخص في (المصارف) الاجنبية بباريس أو غيرها.

[اما البادية فلم تستفد من المدينة سوى عاداتها السيئة جداً: المخدرات بانواعها ـــ الجرائم بمختلف أشكالها...]

ان تطويق المدن من البوادي قد تحقق موضوعيا، وبدون وعي وارادة من الجماهير الفلاحية نفسها بل بارادة من شروط الاستعمار الجديد، وهو اليوم يكاد يكون في انتظار إشارة من الوعي ليتحول الى فعل الى قيامة عامة لا تبقي ولا تذر، ونسأل الله السلامة والعافية.

حقا لقد كدنا نصبح مرة أخرى أمتين في وطن كما كان حالنا أثناء العهد الاستعماري القديم، أمة المستضعفين من جهة وأمة المستكبرين أصحاب الكرافات والسيجار والويسكي وتبادل النساء، في الجهة المقابلة.